الفصل الثاني

مشهد الخيل في القصيدة الجاهلية

القسم الأول: المشهد الإنساني للخيل

١- المشهد العام : أهمية الخيل ومكانتها

٢- مشهد الخيل والحرب

القسم الثاني: مشهد الخيل والصيد

١- المشهد العام للخيل والصيد

٢- مشهد الخيل وحيوان الوحش

obeikandl.com

obeikandl.com

مشهد الخيل في القصيدة الجاهلية

كان لشدة عناية العرب بالخيل أن أُلِّفت فيها كتب كثيرة في القديم والحديث[1].

وكان لأهميتها في حياة الجاهليين أنها دخلت فيها عنصراً فاعلاً لا طارئاً عليها[2]، فهنأ بعضهم بعضاً بنتاجها[3]، وحرصوا على اقتناء أجودها مما توافرت له الأصالة[4].

ومن هنا فالخيل عند العرب مظهر حضاري يدل على رقيهم، إذ عَدُّوا الخيل من أسرتهم، وعاملوها معاملتهم أنفسهم وقد تزيد. فإذا كانت الناقة تمثل حالة التعبير عن الذات الشاعرية، وذات صاحب الرحلة، في الوقت الذي تكشف فيه

---

١ - من الكتب القديمة (أنساب الخيل لابن الكلبي، والخيل لأبي عبيدة مُعْمَر بن المثنَّى، والخيل للأصمعي، وأسماء خيل العرب وفرسانها لابن الأعرابي، وأسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها للغُنْدُجاني، والحَلْبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام للصاحبي التاجي) وغيرها.
وثمة أبواب كاملة عن الخيل في كتب الأدب واللغة، مثل (عيون الأخبار، والمعاني الكبير وأدب الكاتب لابن قتيبة، والنوادر لأبي علي القالي، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني، والمخصص لابن سِيْدَه). وذكر الجاحظ الخيل في أكثر من مكان في كتابه المشهور (الحيوان) وذكرها (رسالة الصاهل والشاحج للمعري، وحياة الحيوان الكبرى للدميري).
ومن الكتب الحديثة (وصف الخيل لسلامة الدقس، والفروسية في الشعر الجاهلي للقيسي ونخبة عقد الأجياد للجزائري).
وثمة كتب عامة أتت على ذكر الخيل، مثل (شعر الحرب في العصر الجاهلي لعلي الجندي، وشعر الطبيعة في الأدب العربي لسيد نوفل، والطبيعة في الشعر الجاهلي للقيسي، وشعر الطرد عند العرب لعبد القادر أمين، والصيد والطرد في الشعر العربي للصالحي، والصيد عند العرب لعبد الرحمن رأفت الباشا).

٢ - انظر الحيوان ١٢٠/٢ وانظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ١٠٨ والطبيعتان الحية والصامتة ١٨٥.

٣ - انظر العمدة ٦٥/١ ونخبة عقد الأجياد ١٨٩ و (الحيوان في الشعر الجاهلي) ١٧٤- ١٩١.

٤ - انظر الحاشية السابقة.

obeikandi.com

عن قيم الذات الجماعية فإن الخيل تعد رمزاً أقوى لذلك كله، لأن الخيل أمدت الجاهليين بأسباب القوة والمنعة والانتصار... ومن ثم فإن صورة الخيل تتقصب في القصيدة الجاهلية مجسدة لقيم الذكورة والصلابة في الدفاع عن القبيلة والمرأة، وحمايتها..فصورتها هي صورة الفروسية والشهامة والبطولة والأمن والأمان...

ولهذا فهي فوق النظرة التي يُقال فيها: إنهم استخدموها لحاجاتهم الضرورية؛ أي إن وجودها عنصر تاريخي فعّال في حياتهم هدفه العزة والإباء فضلاً عن أنها مجلبة للرزق في السلم، ومن هنا أطلقوا عليها زاد الراكب[1].

أما مشهد الخيل في القصيدة الجاهلية فهو صورة منطبقة على ذلك كله، لأنه استطاع نقل ما عاينوه عن كتب في الخيل، وما ذهبوا إليه من نوازع نفسية وفكرية واجتماعية أسقطوها عليها. وهو بهذا المفهوم كان قادراً على نقل قيم الجاهليين على اختلاف أشكال المشهد وحجمه، سواء أتى في أثناء القصيدة أم جاء في بدايتها[2]، وسواء طال أم قصر. فأهمية الخيل لم تتوقف عند الحياة، بل امتدت إلى الشعر بظلها القوي، ومن أمثلة هذا قول يزيد بن الخَذَّاق يذكر فرسه (الشموس) في افتتاح قصيدة له[3]:

أَلاَ هَـلْ أَتَاهـا أَنَّ شِـكَّةَ حـازِمٍ لَـدَيَّ وأنّـي قـد صَـنَعْتُ الـشَّمُوسا[4]

فمشاهد الخيل كيفما وردت تبين مكانة الخيل، وتوضح صلتها بأصحابها، وأنسابها، وتقريبها من البيوت استعداداً لكل مكروه، بعد أن دُرِّبت على كسب المعارك.

---

١ - انظر أنساب الخيل ١٣- ١٤ وأسماء خيل العرب (لابن الأعرابي – ليدن) ٥٠ وحلية الفرسان ٢٩- ٣٠ والأنوار ومحاسن الأشعار ١/٢٦٩- ٢٧٠ ونخبة عقد الأجياد ١٨٨ واللسان (زاد)، ولعل ذلك يوضح سبب التسمية، انظر العقد الفريد ١/١٥٧.

٢ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ٧٠ وديوان عنترة ٢٧٢ و٣٠٩. والمفضليات ٢٤٦ ق٧٨ و٣٦٨ ق١١٠ و٣٨٦ ق١١٧ والأصمعيات ٧١ ق١٧ وتنبيه البكري ٢١ والأمالي للقالي ١/١٠ ورسالة الصاهل والشاحج ١٥٨- ١٥٩.

٣ - المفضليات ٢٨٧ ق٩٧ وشرح المفضليات ت ٢/١٠٤٩.

٤ - قد صَنَعْتُ: أحسنت القيام عليها. والشِّكَّة: السَّلاح.

وتميزت العلاقة بين الفرس والفارس ولا سيما إذا اشتد وطيس المعركة؛ وكانت خيل الصيد والسباق صورة من المتعة وكسب الرزق وتحليل فضول أبدانها وأبدان الفرسان وتدريبهم.

وفي غمرة ذلك كانت القرائن من حيوان الوحش تبرز في صورة الشبيه لتستمد الخيل أحسن صفاتها في مشاهد الخيل والصيد، وتظهر معركة الطراد نمطاً لبيان الصراع من أجل البقاء وإيضاحاً للمأساة الإنسانية. وقد تكون مظهراً للفأل الحسن حين ينجو حيوان الوحش من موت محتم.

ولهذا كله حق للخيل هذا الاسم – ولكل من اسمه نصيب – لأنها تختال في صفاتها، والاختيال طبع لديها يقارب طبع الإنسان[1]. والخيل اسم جَمْع لا واحد له من لفظه، وذكر أبو عبيدة أن مفرده خائل، وجَمْع خائل، وجَمْع الجمع خيول وأخيلة، والخيل[2] يقع على الذكر والأنثى مثل الفرس[3].

ومن هنا لا بد من توضيح ذلك من خلال المشهد الإنساني للخيل ومشهد الخيل والصيد.

---

١ – انظر نخبة عقد الأجياد ٤٥ و٢٠٥ وانظر مثلاً: ديوان طرفة ١٢٨.

٢ – اللسان والتاج والقاموس المحيط (خيل) ومعجم مقاييس اللغة ٢/٢٣٥.

٣ – انظر الفروسية في الشعر الجاهلي ٢١– ٢٧.

obeikandl.com

obeikandl.com

القسم الأول

المشهد الإنساني للخيل :

لم يكن مشهد الخيل مقصوداً لذاته عند الشعراء كافة، فمنهم من أتى به عن طريق المصادفة، ومنهم من أتى به مقلداً، ومنهم من ذكره لمجرد إعزاز الخيل وتكريمها، ومنهم من عرض الخيل لأنها موضع إعجابهم ومنعتهم، فهي حِصْن العرب الذي يلجؤون إليه حين الشدة. فحين أُعِدَّت للغارة قُرِّبت من البيوت، لأنها صارت مظهراً لكرامتهم وعزتهم، وشكلاً من أشكال فروسيتهم، إذا لم نقل : إنها شكل إنساني راقٍ، لأن أفعال فرسانها أفعال لها، بل إنها ترى أحياناً ما لا يرونه[1]، فتحدثهم حديثاً لا يدرك أبعاده إلا بعضهم.

وهذا كله يدل على مكانة الخيل وأهميتها في السلم والحرب، فهي من أعظم ما يُهدى[2] ويُحاز، وسيظهر ذلك من خلال أهمية الخيل ومشهد الحرب.

١- أهمية الخيل ومكانتها

حظيت الخيل بمكانة متميزة لدى العرب، وظهر اتصالهم الفريد بها لما قدمته من منافع، كما أشبهت صفاتها صفات أصحابها الخلقية . ولهذا استأثرت أحياناً بالطعام والشراب، وصُنعت لها شجرة أنساب أشبهت ما فعلوه بشجرة أنسابهم، وكان لها نصيب من المشابهة في الصفات بالنساء الجميلات، وكأنهما توحدا في ذهن بعض الشعراء ولاسيما حين جعلها وسيلة إلى ذكر الحبيبة؛ كما رأيناه عند عنترة؛ وبذلك هيأ وجودهما للجاهلي الانتصار على قسوة البادية[3].

ولذا لا بد من الإشارة إلى رياضة السباق التي اشتهر بها الجاهليون[4]، والتي تكاد تنحصر بذوي النسب، وكان لها غايات وقوانين. فهناك حلبات تُجرَى فيها

---

١ - انظر محاضرات الأدباء ٦٣٨/٤ وشعر الحرب في العصر الجاهلي ١٠٤ و ما بعدها.

٢ - انظر ديوان النابغة الذبياني ١٧١ و١٧٣ و١٩٥ وديوان الأعشى ٦٥ و٧٥ و٨٩ و٢٨١ و٣٣٣ و٣٩٥.

٣ - انظر الفروسية في الشعر الجاهلي ٤٣ و٥٣ و ما بعدها .

٤ - استمرت رياضة الخيل في الإسلام وقد أمر بها، انظر صحيح البخاري ٣٨/٤.

obeikandl.com

خيلهم هادفين إلى المفاخرة بأنسابها وجريها وإعدادها وتضميرها وصيانتها والإثراء في المراهنات[1]. وكان من عاداتهم في ذلك أن تصطف الخيل وراء حبل يسمَّى (المقوَّس) ثم تنصب في حلبة السباق قصبة فمن سبق[2] أخذها، ليعرف أنه السابق أو المجلي، ويشترط التماثل في سن الخيل، ومقدار الغَلْوَة[3]. فالجَذَع يجري أربعين غلوة والثَّنيُّ ستين والرُّبَع ثمانين والقارح مئة[4]، ولا يكون أكثر من ذلك، ومن أمثال العرب في هذا "جَرْيُ المُذَكِّيات غِلاَب"[5].

ويقوم السباق ـ غالباً ـ على المراهنة ويتم على فرسين أو أكثر، ويضع هذا رهناً وهذا رهناً وأيهما سبق فرسه يأخذ رهنه ورهن صاحبه. وقد يُدخَل بينهما فرس ثالث يسمَّى (الدخيل)[6]، لا يضع صاحبه رهناً ولا يكون إلا رائعاً، فإن سبق الدخيل أخذ صاحبه الرهنين معاً[7]. ورتب أبو عبيدة وابن قتيبة سوابق الخيل من الأول حتى العاشر كما يلي: السابق وهو المُجلِّي فالمصلِّي فالثالث، وهكذا حتى العاشر الذي يسمى (السُّكَّيْت)، ولا يعتد بعد ذلك، وما يأتي آخر الخيل يقال له (الفِسْكِل)[8]. وقيل أول السوابق المجلِّي فالمُصَلِّي فالمُسَلِّي ثم المؤمَّل فالمرتاح فالعاطف ثم الحَظيّ فاللطم فالسكيت[9]، وقيل غير هذا[10].

---

١ - انظر وصف الخيل ٣١٢- ٣١٤.

٢ - ومن ذلك أخذ المثل المشهور: حاز قَصَب السَّبْق، ومن ثم أطلق على كل مبرز في مختلف المجالات، انظر اللسان (قصب).

٣ - الغَلْوة مقدارها اثنا عشر ميلاً، وهي مقدار رمية بسهم، انظر اللسان (غلو).

٤ - الجذع من الخيل ما أتم السنتين ودخل في الثالثة والثني ما أتم الثالثة ودخل في الرابعة وهكذا، انظر اللسان (جذع وربع وقرح).

٥ - مجمع الأمثال ١٥٨/١ وجمهرة الأمثال ٢٩٩/١.

٦ - ويسمى الدخيل أيضاً (المُحلِّل) انظر اللسان (حلل).

٧ - انظر العقد الفريد ١٧٧/١ واللسان (سبق).

٨ - انظر أدب الكاتب ١٤٥/١- ١٤٦ والعقد الفريد ١٧٨/١.

٩ - انظر العقد الفريد ١٧٨/١.

١٠ - انظر خزانة الأدب ٥١٣/١٣ والعقد الفريد ١٦٥/١ و١٧٨ والموشح ١٥٩ وتهذيب اللغة ٢ /١٨٩.

openkandil.com

وقد جَرَّت المسابقات[1] نتائج غير مرضية في أحيان مختلفة، وشهرة حرب داحس والغبراء أكبر من أن يقام عليها دليل، وقد أشار عنترة إلى هذين الفرسين بقوله:[2]

فليتَهُما لَمْ يَجْريا نِصْفَ غَلْوَةٍ ... وليتَهما لَمْ يُرْسَلا لِرِهانِ

وعلى شهرة رياضة السباق فإن مشاهدها في الشعر الجاهلي عزيزة أكثرها لا يزيد على البيت أو البيتين[3]، وقصائدها تكاد تنعدم[4].

وأياً كانت هذه المشاهد فإنها تدل على أن الخيل ذات شأن عظيم عند العرب وذات منافع جليلة[5] ذكر منها أبو دواد الإيادي الرهان والإثراء به، والرحلة في البلاد، وجعلها وقاية من كل سوء، ولذة للصيد، ولهذا كله أحبها منذ الصغر، فقال[6]:

عَلِقَ الخَيْلَ حُبُّ قَلْبي وليداً ... وإذا ثابَ عِنْدِيَ الإِكْثَارُ

عَلِقَتْ هِمَّتي بهنَّ فما يَمْـ ... ـنَعُ مِنِّي الأَعِنَّةَ الإِقْتَارُ

جُنَّةٌ لي في كُلِّ يومِ رِهَانٍ ... جُمِعَتْ في رِهانِهَا الإِعْشَارُ

وانْجِرارِي بهنَّ نحو عَدُوِّي ... وارْتِحالي البِلادَ والتَّسْيَارُ

ولما فيها من المنافع سُمِّيَت الخير، وهي صورة له كأنهما في قرنين[7]، كقوله تعالى: "إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حتَّى تَوارَتْ بالحِجاب"[8]، وكالحديث

---

١ - انظر سمط اللآلي ٥٨٢/١.

٢ - ديوان عنترة ٣١١.

٣ - انظر مثلاً: أسماء خيل العرب (للغندجاني) ١٦.

٤ - وصف أبو النجم العِجْلي خيل السباق في قصيدة طويلة من الرجز، انظر العقد الفريد ١٧٢/١- ١٧٥.

٥ - انظر مثلاً: ديوان سلامة بن جندل ١٠٩ و١٢٥- ١٣٢ وحلية الفرسان ١٨٤، وانظر الحيوان ١٠٢/٧ ووصف الخيل ٣٧ وبعد والفروسية في الشعر الجاهلي ١٣٩ وما بعدها.

٦ - شعر أبي دواد ٣١٧ وهو في رسالة الصاهل والشاحج ١٥٨ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٨٦/١، وانظر وصف الخيل ٣١٢- ٣١٤.

٧ - انظر تأويل مشكل القرآن ١٣٩ ومحاضرات الأدباء ٦٥٢/٤.

٨ - سورة ص ٣١/٣٨.

obeikandl.com

وكالحديث الشريف: الخيل معقود في نواصيها الخير"[1]، فهو يمشي في ركابها في السلم والحرب[2]، علماً أن حياة العرب حياة حربية ـ غالباً ـ نتيجة لطبيعة الصحراء ومواردها وقوانينها الصارمة، وبخاصة قانون صراع البقاء. كقول طفيل الغنوي[3]:

وللخَيْلِ أَيَّامٌ فمَنْ يَصْطَبِرْ لَهَا ... ويَعْرِفْ لَهَا أَيَّامَهَا الخَيْرِ تُعْقِبِ

وقد يقول قائل : إن العرب فضلت الذكور من الخيل على الإناث؛ وليس هذا بشيء، فحين فُضِّلت الخيل في ساحة المعركة فإن إناث الخيل فُضِّلت في الغارات البعيدة، لأنها أشد على الاحتمال، فضلاً عن أنها أم الذكور والإناث..ومن ثم صار مصطلح الخيل يطلق على كليهما معاً.

ولهذا قيل: عليك بإناث الخيل فإن ظهورها عِزّ وبطونها كنز[4]، وأكبر مذلة ألا يملك العربي أعداداً منها، بل هُجي بهذا كقول دريد بن الصمة[5]:

لعَمْرُو بني شِهابٍ ما أقَامُوا ... صُدُورَ الخَيْلِ والأَسَلِ النِّياعَا[6]

فالخيل حصن يرصده الجاهلي لريب الدهر إذا ما اشتد الخطب بهم كقول أمية بن أبي الصِلت[7]:

وأَرْصَدْنا لِرَيْبِ الدَّهْرِ جُرْداً ... لَهَامِيماً وماذِيَّاً حَصِيْنَا[8]

---

١ - صحيح البخاري ٣٤/٤ وانظر فيه ٢٥٢ وصحيح مسلم ١٦/١٣ وبعد وتهذيب التهذيب ٢٣/٥ وانظر الحيوان ٥٠٧/٥- ٥٠٨ ونخبة عقد الأجياد ١٤- ١٦.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٢٥ ونخبة عقد الأجياد ١٧.

٣ - ديوان طفيل الغنوي ٤٩ وورد في تأويل مشكل القرآن ١٤٠ والمعاني الكبير ٨٥/١.

٤ - انظر عيون الأخبار ١٥٣/٢ ومحاضرات الأدباء ٦٣٦/٤ وانظر مثلاً: الوحشيات (شعر الأسعر الجعفي) ٤٤ والعقد الفريد ١٥٢/١.

٥ - ديوان دريد بن الصمة ٩٢ وانظر فيه ٣٠.

٦ - الأسل: أطراف الأسنة. والنياع العطاش إلى الدماء.

٧ - ديوان أمية بن أبي الصلت ٥٠٦ وانظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٩١ وشعر عمرو بن معد يكرب ١١٢.

٨ - أرصد له الأمر: أعده. وريب الدهر: نوائبه. والجرد: الخيل القصيرة الشعر، وهذا من صفات عنقها. واللهاميم: السريعة. والماذي: السلاح من الحديد، ودِرْع ماذية: لينة والماذي: العسل.

openkanal.com

فعلى ظُهورها تُدْرك الثارات[1]، فتراها تزحف كجماعة الطير بين طالب ومطلوب كقول طفيل[2]:

وكُنَّا إذَا ما اغتَفَّتِ الخَيْلُ غُفَّةً تَجَرَّدَ طُلاَّبُ التِّراتِ مُطَلَّبُ

وهي تنجد القوم، وتعزهم حين البأس كقول عمرو بن كلثوم[3]:

وتَحمِلُنا غَداةَ الرَّوْعِ جُرْدٌ عُرِفْنَ لَنَا نَقَائِذَ وافْتُلِيْنَا[4]

وَرِثْناهُنَّ عَنْ آباءِ صِدْقٍ ونُورْثُها إذا مُتْنَا بَنِيْنَا

فالخيل تأتي بالغنائم والنهاب والسبايا[5]، وترد الأعداء على أعقابهم[6]، كقول عنترة[7]:

ومُرْقِصَةٍ رَدَدْتُ الخَيْلَ عنها وقَدْ هَمَّتْ بإلقَاءِ الزِّمَامِ

وبهذا كله يثبت مشهد الخيل أن العربي يطمئن إلى خيله ويرعاها، فلم يُذكر قط أنه أهانها، وما قادها من ناصيتها، بل تُمشُّ الأيدي على أعرافها إحساناً لها، لأنها ارتقت إلى مرتبة عالية لا تقل عن مرتبة الأخ كقول علقمة الفحل[8]:

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ٢٧ و٣٢ و١٥٢ وشرح ديوان لبيد ٣٤٩ وديوان المزرد ٤١ والأصمعيات ٦٥ ق١٥ و١٤٣ ق٤٤ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٥٢/١ و٢٥٧.

٢ - ديوان طفيل الغنوي ٦٩ وانظر سمط اللآلي ٦٦٥/٢.

٣ - شرح القصائد العشر ٣٥٧ وشرح المعلقات السبع ٢٥٥ وأخبار المراقسة ٢٣١.

٤ - النقائذ: ما استنقذت من قوم آخرين. والافتلاء: الفطام.

٥ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٩ و٢٩ و١٨٣ وطفيل الغنوي ٤٢ و٦٤ و٦٩ و٩٢ و٩٥ و١٢٥و ١٢٩وطرفة ١٠٥ وعامر بن الطفيل ٥١ و٩٣ و٩٧ و١١١ و١٢٩ ودريد بن الصمة ٩٦ وقيس بن الخطيم ٥١ و١٨٦ وعمرو بن كلثوم (كرنكو) ٦٠١ والخنساء ٧ و١٣١ والأعشى ٤٩ و٦٩ و٢٠٥ و٢٩٧ والحطيئة ١٠١ وشعر زيد الخيل ٢٠٣ و٢٠٧ والأنوار ومحاسن الأشعار ١٧٦/١.

٦ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٩٢و١٢٨ و١٢٩ وعلقمة الفحل ٤٣ وعنترة ٢٢٤ و٢٤٣ ودريد بن الصمة ٤٢ و٨٤ وشعر زيد الخيل ١٦٣ وعمرو بن شأس ٧٦ وديوان الهذليين ٢٠٢/١ وشرح القصائد العشر ٢٦٣ وديوان العباس بن مرداس ٧٠.

٧ - ديوان عنترة ٢٤٣.

٨ - ديوان علقمة الفحل ٩٢.

obeikandi.com

إذا مـا اقْتَنَـصْنَا لمْ نُخاتِـلْ بِجُنَّـةٍ ولكِـنْ ننـادي مِـنْ بَعِيـدٍ: أَلاَ ارْكَـبِ

أخـا ثِقَـةٍ لا يلعَـنُ الحـيُّ شخـصَهُ صَبُوراً علـى العِـلاَّتِ غَـيرَ مُـسبَّبِ[1]

ذلك ما كان منه في حالة السلم والدعة أما في الحرب فالأمر أدق، ويوضحه قول عامر بن الطفيل حين مدح فرسه وقد عُقر في موضع تضروع[2]:

ونِعْمَ أخُو الصُّعْلوكِ أَمْسِ تَرَكْتُهُ بتَـضْرُوْعَ يَمـرِي لليَـدَيْنِ ويَعـسِفُ[3]

فالخيل رفيق للفارس أينما حَلَّ وأنَّى ذهب، يرشحها لهذا عتقها وصفاتها المميزة لقدرتها كقول طفيل الغنوي في فرسه الأنثى[4]:

إنِّـي وإنْ قَـلَّ مَـالِي لا يُفـارِقُني مِثْـلُ النَّعَامـةِ فِي أَوْصَـالِهَا طُـولُ

ولا شيء أدل على ذلك من أن الخيل حملت صفات أصحابها وصارت صورة لهم. فالفرس ـ ذكر أم أنثى ـ شهم نبيل، فيه من الفخر والخيلاء ما في طبع البشر، ففي الأثر: "الفخر والخيلاء في الفدَّادي أهلِ الوبر، والسكينة في أهل الغنم"[5]. وقال الحسن (رضي الله عنه): "الجفاء مع أذناب الإبل والمذلة مع أذناب البقر والسكينة مع أذناب الغنم والعز في نواصي الخيل"[6]. وقال الثعالبي: "الخيل للاختيال والبغل للإيغال والجمل للأثقال"[7]. ولعل في صفة تأبط شراً شبهاً بالفرس الذيَّال، فهو يتهادى اختيالاً كفرس أحوى من الجياد العتاق فيرفل مزهواً، كما يصفه ابن اخته خُفاف بن نَضْلة[8]:

---

١ - لا يُلعن: لا يُسَبّ. والعلات: ما بع من علة وعيب.

٢ - ديوان عامر بن الطفيل ٨٦ وانظر فيه ١٢١.

٣ - يمري: يقوم على ثلاث، ويمسح الأرض بالرابعة، فيحرك يديه كالعابث. ويعسف: ترتفع حنجرته عند الموت.

٤ - ديوان طفيل الغنوي ٧٧ وانظر مثلاً ديوان عامر بن الطفيل ٣٢ و٣٦.

٥ - صحيح البخاري ٢١٧/٤ وانظر الجامع الصغير ٤٣٧٢ والحيوان ٥٠٨/٥ ونخبة عقد الأجياد ١٦.

٦ - محاضرات الأدباء ٦٣٣/٤ وانظر فيه ٦٥٢ وثمار القلوب ٣٥٧.

٧ - ثمار القلوب ٣٥٧ وانظر مثلاً: ديوان الأعشى ٦٧ وانظر ديوان أمية بن أبي الصلت ٤٢٤.

٨ - ديوان تأبط شراً ٢٤٩.

obeikandl.com

مَسْبِلٌ فِي الحَيِّ أحْوَى رِفْلُّ وإذا يَغْزُو فَسِمْعٌ أَزَلُّ

فالمسبل والأحْوَى والرِّفلُّ كُلُّها من صفات الخيل، ولعل إبداع هذا الوصف للإنسان جعل أبا عبيدة يصف القصيدة بنمط صعب[1]. وفي الحديث الشريف: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يَنْظر إليهم ولا يُزَكِّيْهم ولهم عَذَاب أليم المُسْبِلُ والمَنَّانُ والمُنْفق سِلعَتَه بالحلِف الكاذب"[2].

وبهذا كله يصح أن يقال: أَسْبل الفرس ذنبه، وأَسْبل المرء إزاره. ويصح أن يقال: مُسْبل، ويراد به الفرس الذَّيَّال[3]. وهذا ما عهدناه عند شعراء الجاهلية، فصفة الخيلاء تظهر عند شُرَيْح بن الأحوص أحد سادة الجاهليين، وهي صفة فرسه. ويتركز أخيراً في صفة السكران الذي يجر بُرْديه من خيلاء لا من اختلاط وتساقط فيقول[4]:

قَدْ أَطْرُقُ الحَيَّ عَلى سَابِحٍ أَسْطَعَ مِثْلِ الصَّدَعِ الأَجْرَدِ[5]

لَمَّا أَتَيْتُ الحَيَّ في مَتْنِهِ كَأَنَّ عُرْجُوناً بِيُمنَى يَدي[6]

أَقْبَلَ يَخْتَالُ عَلى ظِلِّهِ كَأَنَّمَا يَعْلُو إلى فَدْفَدِ[7]

يَضْرِبُ عِطْفَيْهِ إلى شَأوِهِ يَذْهَبُ في الأَقْرَبِ والأَبْعَدِ

---

١ - انظر سمط اللآلي ٩١٩/٢.

٢ - صحيح مسلم ١١٤/٢.

٣ - وذلك يصحح ما وقع به بعض اللغويين الذين قصروا صفة المسبل على الناس، انظر شرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٨٣٢/٢ وشرح (التبريزي) ٣٤٤/١ وسمط اللآلي ١٦٥/١. ووضح ذلك كله العلاّمة محمود شاكر في مقاله الشهير (نمط صعب ونمط مخيف) فانظر مجلة (المجلة ١٩٦٩م – ١٩٧٠م) (١- ٧).

٤ - الوحشيات ٩٩ ق١٥٧.

٥ - الصَّدَع: الوَعِل الفتي.

٦ - العُرْجون: العِذْق عامة، وقيل العذق إذ يبس واعوجّ.

٧ - الفَدْفَد – هنا – " الذي يعدوُ بقوة ويتعالى في خيلاء، وهو مأخوذ من المكان المرتفع.

كأنَّـــهُ سَـــكْرانُ أَوْ عَابِـــثٌ أَوْ ابـــنُ رَبٍّ حَـــدَثُ المَوْلِـــدِ

وإذا كان فرس شُريح يرفل في ساحة الحي متبارياً في الاختيال مع ظله فإن فرس عارق الطائي تليق به المسرة والنعيم لأنه كريم[1].

ولعل هذا سبب في إعلاء مكانة الخيل، فيقيها الفارس بالنفس ولا سيما إذا اشتد الأمر، كما فعل عنترة خاصة[2]، والجاهليون عامة، فهذا ثعلبة بن أم حزنة العبدي يضحي بنفسه ليبقى فرسه (عَرِيب) فيقول[3]:

إنَّ عَرِيْبَـــاً وإنْ سَـــاءَني أَحَـــبُّ حَبِيْـــبٍ وأَدْنَـــى قَرِيـــبِ
ســـأجْعَلُ نَفْـــسِي لَـــهُ جُنَّـــةً بـــشاكي الـــسِّلاحِ نَهِيْـــبٍ أَرِيـــبِ

ولهذا صارت الخيل مظهراً من مظاهر كرامة العربي لا تعلوها مكانة المحبوبة لديه وإن شغفت قلبه. فهذا سبيع بن الخطيم التيمي يرفض أن يُعْطي فرسهُ (نَحْلة) مَهْراً لفتاته على الرغم من أنها لَجَّت عليه لإجابة طلب أبيها بهذ المهر ومَنَّته الأماني فيخاطبه قائلاً[4]:

يقولُ: نَحْلَةَ أَوْدِعْني، فقُلْتُ لَهُ : عَـــوِّلْ علـــيَّ بأبْكـــارٍ هَرَاجِيْـــبِ[5]
لَجَّـــتْ عَلـــيَّ، يَمِـــينٌ لا أُبَـــدِّلُها مِنْ ذَاتِ قُـرْطَيْنِ بين النَّحْـرِ واللُّـوْبِ[6]

ويشيد الأسْعَر الجُعْفي بأخلاق قعيدته وهي زوجه أو أمه، لأنها آثرت الخيل على نفسها، وأدركت أن الخيل عِزٌّ لها ولقومها، بينما باع إخوته خيلهم، لتسمن

---

١ - انظر الوحشيات ٢٥٠ ق٤١٤.

٢ - انظر ديوان عنترة (صادر) ٢٣ و٢٨ وانظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١١٦.

٣ - أسماء خيل العرب (الغندجاني) ١٧٥. والبيتان من قصيدة مقيدة في المفضليات ٢٥٣ ق ٦١ ومطلقة في كتاب الاختيارين ٢٥٣ :

٤ - أسماء خيل العرب (الغندجاني) ٢٤٦- ٢٤٧.

٥ - الأبكار الهراجيب: الإبل الفتية الضخام. ويقول: الضمير في الفعل عائد إلى عم الشاعر.

٦ - اللُّوب: جمع لُوبة، وهي الحَرَّة ولا تكون إلا حجارة سوداً، وقد استعار الشاعر اللفظ ليصف الصدر بالسَّعَة.

أمهم فهجاهم قائلاً[1]:

بـاعُوا جـوادَهُمُ لِتَـسْمَنَ أُمُّهـمْ ... ولكـي يَعُـودَ علـى فِراشِـهِمُ فَتَـى[2]

عِلْـجٌ إِذَا مـا بَـزَّ عَنْهـا ثَوبَهـا ... وتخَامـصَتْ قالَـتْ لـهُ: مـاذَا تَـرَى؟[3]

لكِـنْ قَعِيـدةُ بَيْتِنـا مَجْفُـوَّةٌ ... بـادٍ جَنَـاجِنُ صَـدْرِها ولهـا غِنَـى[4]

تُقْفِـي بعِيْـشَةِ أَهْلِهـا وَثَّابَـةً ... أَوْ جُرْشُعاً عَبْلَ المَحَـازِمِ والشَّوَى[5]

ويوضح المشهد أن مكانة المرأة مرتبطة بإكرام الخيل، فإذا تهاونت في أمرها أو أظهرت نزعة عدوانية نحوها فضل الرجل خيله عليها دون تردد[6]. وكي لا يصل إلى هذا الموقف يحرص على ألا تريق المرأة كرامتها، وتتعلل بجاراتها اللواتي أكثرن من العِهْن. فحين صمم على أن تعلو فرسهُ منزلة كل خليل رفض نصيحة زوجه ببيعها وإنْ ثابت أثمانها، ومن أمثلة ذلك قول المُقْعَد بن شَمَّاس السَّعْدي[7]:

أَتَـأْمُرني بكَنْـزَةَ أمُّ قَـشْعٍ ... لأَشْـريها فقُلْـتُ لَهَـا: دَعِـيْني[8]

فلَـوْ في غَيْـرِ كَنْـزَةَ آمَرَتْنِـي ... ولكِنِّـي بكَنْـزَةَ كالـضَّنِينِ

أُداوِيْهـا دِواءَ أَخٍ لَطِيـفٍ ... إِذا خَمِصَ الوِطَابُ مِنَ الحَقِيْنِ[9]

---

١ - الأصمعيات ١٤٠ ق٤٤ وهي في الوحشيات ٤٣ ق٥٨ وانظر سمط اللآلي ١/٩٤- ٩٥.

٢ - لتسمن أمهم: آثروا أمهم باللبن على خيلهم، فإذا سمنت زوجوها.

٣ - العلج: الرجل الشديد الغليظ. وبَزَّ الثوب: انتزعه. وتخامصت: تجافت عن الفراش، لكي يظهر خمصها، أي ضُمورها.

٤ - قعيدة بيتنا: المرأة. والجناجن: عظام الصدر.

٥ - تقفي: تفضل وتؤثر. والجرشع: الغليظ المنتفخ الجبين. والعَبْل: الممتلئ. والمحازم: جمع مَحْزَم، وهو موضع الحزام. والشَّوَى: الأطراف والقوائم.

٦ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٢٧٢.

٧ - أنساب الخيل ١٠٠ وأسماء خيل العرب (للغندجاني) ٢٠٧- ٢٠٨.

٨ - أشربها: أبيعها، وهو من ألفاظ الأضداد، انظر ثلاثة كتب في الأضداد ٣٠ و١٠٦.

٩ - خمص الوطاب: خلا الجوف. والحَقِينُ: الحَبْس.

obeikandl.com

فـــلا وأَبِيْـــكِ لا أَحْبُـــو خَلَـــيلاً بكَنْـــزَةَ مـــا حَيِيْـتُ فـــلا تَهـــوني

رَأتْ جَاراتِهـــا خُـــدِّرْنَ رَيْطـــاً وأُكْثِـــرَ فَـــوْقَهُنَّ مِـــنَ العُهُـــونِ

فهذه المشاهد أثبتت أن الخيل عُدَّت من أسرة العربي، ولم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئاً من أموالها وتكرمه صيانتها الخيل، فإكرامها إكرام لأصحابها، وإذا هزلت عُيِّروا بهزالها وعدم رعايتها[1].

ولهذا قربوها من البيوت، وحرصوا عليها ما عاشوا، كقول قيس بن الحارث[2]:

لا تُقْصِيَا مَرْبِطَ الشَّهْبَاءِ مُنِتَبَذاً بخَلـوةٍ إنَّ رَيْـبَ الـدَّهْرِ مَرْهُـوْبُ

وقَرِّبَاهـا إنِّـيَ لَـنْ تَمَـسَّ يَـدِي يَـداً بِبَيْـعٍ لَهَـا ماحَنَّـتِ النِّيْـبُ[3]

وكذلك فضلوها على أنفسهم بالقوت[4] إذا قَلَّ الرزق وجاعوا على ضرر الجوع بهم وبأهلهم، وجلَّلُوها بأرديتهم إذا هجم الشتاء، كقول شَمْعَلَة الضَّبِّي[5]:

نُوَلِّيْهـــا الحَلِيْـــبَ إذا شَـــتَوْنَا عَلَـــى عِلاَّتِنـــا ونَلِـــي الـــسَّمَارَا[6]

رَجَـــاءً أَنْ تُؤَدِّيَـــهُ إِلَيْنَـــا مِـــنَ الأَعْـــداءِ غَـــصْبَاً واقْتِـــسَارا

---

١ - أنساب الخيل (لأبي عبيدة) ٢، وانظر حلية الفرسان ١٧٧ ووصف الخيل ٤٠ و ما بعدها.

٢ - أسماء خيل العرب (للغندجاني) ١٣٨.

٣ - النيب: النوق المسَان.

٤ - انظر سمط اللآلي ٥٢/١ ورسالة الصاهل والشاحج ١٧٣ وأسماء خيل العرب (الغندجاني) ١٢٤ ونخبة عقد الأجياد ١٨ و٢٢٣.

٥ - أسماء خيل العرب (الغندجاني) ١٤٠-١٤١ وانظر رسالة الصاهل والشاحج ١٥٩ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٨٧/١.

٦ - السَّمَار: اللبن ثلثاه ماء أو ثلاثة أرباعه والباقي لبن.

obeikandl.com

فرعاية الخيل مأثرة عندهم، وإيثارها منعة[1]، ولهذا حرصوا على إطعامهم بأنفسهم، ولم يثقوا بهذا الفعل إلا بأهلهم[2] والخُلّص من عبيدهم، كقول خالد بن جعفر[3]:

أَرِيْغُـــونِي إِراغَـــتَكُمْ فـــإِنِّي ... وحَذْفَـةَ كالشَّجَا تَحْتَ الوَرِيدِ

مُـــسَوَّمَةً أُسَـــوِّيها بِنَفْـــسِي ... وَأُلْحِفُهَـــا رِدَائِـــي فِي الجَلِيـــدِ

وَأُوصِـــي الـــرَّاعِيَيْنِ لِيُؤْثِرَاهَـــا ... لَهَـــا لَـــبَنُ الخَلِيَّـــةِ وَالـــصَّعُودِ[4]

لَعَـــلَّ اللهَ يُمْكِنُنِـــي عَلَيْهَـــا ... جِهَـــاراً مِـــنْ زُهَيْـــرٍ أَوْ أَسِـــيْدِ[5]

ومدح الأعشى النعمان بن المنذر وهَوْذة بن علي لقيامهما بأمر خيلهما والعناية بها[6]، بينما عَنَّف عنترة إخوته، لأنهم أهملوا مُهْرَهم فأصبح مهزولاً، فقال[7]:

أَبِنِـــي زَبِيْبَـــةَ مَـــالِمُهْرِكُمُ ... مُتَخَـــدِّداً وَبُطُـــونُكُمْ عُجُـــرُ

إِذْ لا تَـــزالُ لَكُـــمْ مُغَرْغَـــرَةً ... تَعْلِـــي وَأَعْلَـــى لَوْنِهَـــا صَـــهَرُ[8]

فلو خبر إخوتُه ما يأتي به المُهْر من صيد طيب اللحم يملأ قدورهم لما ضيعوه، وأهملوه. وبقي مشهد الخيل حاملاً لهذه المعاني حتى العصر الإسلامي كما وجدناه عند الأعرج المَعْنِيِّ، فهو يقارن بين زوجه وفرسه فحين يجزيه فرسه عن حسن

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٢٤ و٣٠٩-٣١٠ و٣٢٠ وشعر زيد الخيل ٢٠٩-٢١٠ والحماسة البصرية ٧٧/١ والأمالي للقالي ٢١/١ وحلية الفرسان ١٨٢ والفروسية في الشعر الجاهلي ١٤٢ و ما بعدها .

٢ - انظر مثلاً: المفضليات ٣٢ وشرح القصائد العشر ٣٦٤ وشعر أبي زبيد الطائي ٦٣٨ وشرح القصائد السبع الطوال (ت. هارون) ـ (معلقة عمرو بن كلثوم) ٤٢٢ وانظر الفروسية في الشعر الجاهلي ١٤٦.

٣ - الوحشيات: ١٠١.

٤ - الخَلِيَّة: الناقة التي خُلِّيت للحلب من كرمها. والصَّعُود: الناقة يموت حُوارها فترجع إلى فصيلها فتدر عليه.

٥ - زهير بن جذيمة العبسي وأخوه أَسِيد.

٦ - انظر ديوان الأعشى ٢٥٥ و١٣٥.

٧ - ديوان عنترة ٣١٥.

٨ - الغرغرة: صوت القِدْر، وقد وضع المصدر موضع الاسم، في صَهَر: وهو الحار.

obeikandl.com

صنيعه به في الشدائد فإن زوجه يطير فؤادها، وتخرج حاسرة الرأس إذا دهمتها الأزمات، بينما قام إليه ثابت الجنان يمتطيه للمعركة، فيقول[1]:

أَرَى أُمَّ سَهْلٍ ما تَزَالُ تَفَجَّعُ ... تَلُومُ وما أَدْرِي عَلاَمَ تَوَجَّعُ؟

تَلُوْمُ عَلى أَنْ أُعْطِيَ الوَرْدَ لِقْحَةً ... وما تَسْتَوي والوَرْدَ سَاعَةَ تَفْزَعُ[2]

إذا هِيَ قامَتْ حَاسِراً مُشْمَعِلَّةً ... نَخِيْبَ الفُؤادِ رَأْسَهَا ما تُقَنَّعُ[3]

وقَمْتُ إِلَيْهِ باللِّجَامِ مُيَسِّراً ... هُنالِكَ يَجزِيْني الَّذي كُنْتُ أَصْنَعُ

فالمشهد يوضح الأسباب التي تجعل مكانة الخيل فوق مكانة المرأة، فالخيل تعني فروسية العربي وكرامته وشهامته وشجاعته، ولهذا لا يتوانى عن تطليق امرأته إذا وجد لديها إعراضاً عن خيله ، كقول عامر بن الطفيل[4]:

طُلِّقْتِ إِنْ لَمْ تَسْأَلي: أَيُّ فارسٍ ... حَلِيلُكِ إِذْ لاقَى صُدَاءً وخَثْعَمَا[5]

أَكُرُّ عَلَيْهِمْ دَعْلَجاً ولَبَانُهُ ... إِذا مَا اشْتَكَى وَقْعَ الرِّماحِ تحَمْحَمَا[6]

فهذا الود العظيم بين الفارس وفرسه له ما يسوغه، وقد قوته جملة من المفاهيم التي عززتها حياة صعبة تعتمد القوة غالباً في تلك البادية القاسية. ولهذا كانت العناية بالخيل ذات هدف سام، فإذا كان علفها لِغَيْر ما غاية فإن هذا يسيء الجاهلي، فإكرامها صيانتُها من كل سوء، وتضميرُها يتم في وتدريبُها، أي إن العناية بها إكرام للنفس، وإلا فهي مُساءة، كقول أحد بني عامر بن صعصعة[7]:

---

١ - شرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٣٤٩/١.

٢ - اللَّقْحة: الناقة التي بها لبن.

٣ - المُشْمَعِلَّة: الجادة في العَدْو. ونَخْيبُ الفؤاد: أي هي فَزِعة.

٤ - ديوان عامر بن الطفيل ١٣٤.

٥ - صُدَاء وخثعم: حَيَّان من العرب.

٦ - دَعْلج: فرس الشاعر. وتحمحم: ردد صوته من الألم.

٧ - أنساب الخيل (لأبي عبيدة) ١٢ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٨٦/١- ٢٨٧ وحلية الفرسان ١١٧ ونخبة الأجياد ٢٤.

obeikandi.com

بَني عامرٍ مالي أَرَى الخَيْلَ أَصْبَحَتْ بِطاناً وبَعْضُ الضُّمْرِ للخَيْلِ أَفْضَلُ

بـــني عـــامرٍ إنَّ الخُيُـــولَ وِقَايـــةٌ لأنْفُـــسِكمْ والمَـــوْتُ وَقْـــتٌ مُؤجَّـــلُ

أَهِينُـوا لَهَـا مـا تُكرِمـونَ وبَاشِـرُوْا صِـيَانَتَها والـصَّوْنُ للخَيْـلِ أَجْمَـلُ

مَتَـى تُكْرِمُوهـا يُكْـرِمِ المَـرْءُ نَفْسَهُ وكـلُّ امْـرِئٍ مِـنْ قَوْمِـهِ حَيْـثُ يَنْـزِلُ

ويُلاقـي إكرامُهـا في المعاملـة والقيـام علـى شـؤونها أصـالتها في النسـب عنـد العرب، فهي مكرمة لأنها سليلة خيل عتيقة، كقول عبيدة بن ربيعة[1]:

أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ! إنَّ سَـكابِ عِلْـقٌ نَفِـيْسٌ لا تُعَـارُ ولا تُبَـاعُ

سَـليلةُ سَـابِقَيْن تَنَاجَلاَهَـا يَـضُمُّهُمَا إِذَا نُـسِبَا الكُـرَاعُ[2]

فهذا المشهد واحد من مشاهد كثيرة تثبت أن العرب حافظوا على صفاء الخيل، وصنعُوا لها شجرة أنساب لم تُعرف إلا بما فعلوه بأنفسهم وإبلهم[3]. فهي ذات أواصر أسرية وإن تعددت المصاهرات، ولهذا ميزوا الصريح النسب الذي عرف بعِتْقه[4] من الخيل المُهَجَّنة[5] التي أخذت تسميات لها كالمُقْرِف.

---

١ - أسماء خيل العرب وأنسابها (الغندجاني) ١٢٤ وورد في أسماء خيل العرب لابن الأعرابي ٦٢ والمخصص ١٩٥/٢ واللسان (سكب) وشرح شواهد المغني ٣٣٨/١ وشرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٢٠٩/١ وخزانة الأدب ٢١٤/٢.

٢ - عند الغندجاني: "... سكاب ليست بعلق يستعار..." وأَثبتُّ رواية المصادر الأخرى، وسكاب: مثل حَزَام، علم مؤنث مبني على الكسر، (اللسان)، على لغة الحجاز. وتناجلاها: تناسلاها. والكراع: علم مشهور من الخيل (أسماء خيل العرب وذكر فرسانها ٢١٣) وأبيت اللعن: أي أبيت أن تأتي ما تلعن عليه؛ وهي تحية للملوك في الجاهلية (اللسان)

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٦٦ والنابغة الذبياني ٥٩ وابن مقبل ٨٦ وعمرو بن كلثوم (كرنكو) ٥٩٩ وشعر عمرو بن شأس ٦٤ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٦٧- ٢٦٨ وهذا كثير أعظم من أن يقام عليه دليل في أشعار الجاهليين.

٤ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٧٣ والنابغة الذبياني ١٧٣ ونخبة عقد الأجياد ٣٩-٤٤.

٥ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٣٧١ وديوان النابغة الذبياني ١٧٠ وأوس بن حجر ١٠٣ والمفضليات ٦٥ ق١٢.

obeikandl.com

ومن أمثلة ذلك قول المزرد[1]:

كُمَيْتُ عَبَنَّاةُ السَّرَاةِ نَمى بهَا إلى نَسبِ الخَيْلِ الصَّرِيحُ وجَافِلُ[2]

وأشهر أسرها هي "أَعْوَجَ والوَجيْهِ ومُذْهَبٍ وقَيْدٍ وبَذْوَةَ وحَلاَّء وسَبَل و... وزاد الراكب وغيرهن من فحول الخيل وإناثها"[3] ويرى نسابو الخيل أن أرومة خيل العرب قد تعود إلى زاد الراكب أو غيره[4]. ومن الأفراس المشهورة في عهد الرسول "صلى الله عليه وسلم" اللَّطيف وجَرَادة[5] ومَنْدوب[6]. ولعل صهيل الفرس يكشف عن عروبته، كقول النابغة الجعدي[7]:

ويَصْهِلُ في مِثْلِ جَوْفِ الطَّوِيِّ صَهِيْلاً يُبَيِّنُ للمُعْرِبِ[8]

وبهذا صارت صراحة النسب وشهرته "حالة من حالات البداوة لهم ولحيواناتهم"[9]، فطفيل الغنوي يؤصل رمحه مثلما فعل بناقته وخيله ونفسه[10].

ومن هنا فإن العرب حفظوا نسب الخيل حفظاً دقيقاً وعنوا بذلك عناية كبرى قبل الإسلام وبعده. ولنا مما أورده الجاحظ (ت ٢٥٥) هـ دليل على هذه المسألة: "قاد عياش بن الزبرقان بن بدر إلى عبد الملك بن مروان خمسة وعشرين فرساً. فلما جلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه وأمهاته، وحلف على كل فرس بيمين غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر. فقال عبد الملك بن مروان:

---

١ - ديوان المزرد ٤٠ وانظر فيه ٣٥ والشعر في المفضليات ٩٧ ق١٧.

٢ - العَبَنَّاة: الموثقة الخَلْق الشديدة. والسَّرَاة: - هنا - الظهر. والصريح وجافل: فحلان مشهوران.

٣ - رسالة الصاهل والشاحج ١٦١ وانظر الأمالي للقالي ١٨٦/١ والنوادر ١٨٤ والعمدة ٢٣٤/٢ و ما بعدها.

٤ - انظر حاشية (١) صفحة ١١٨ مما تقدم والعمدة ٢٤٣/٢ وبعد، والحلبة في أسماء الخيل ٤٧.

٥ - انظر صحيح البخاري ٥/٤ و٣٤.

٦ - انظر صحيح البخاري ٣٥/٤.

٧ - شعر النابغة الجعدي ٢٣ وانظر فيه ٨٧.

٨ - الطوي: البئر المطوية. والمعرب: الذي يملك خيلاً عراباً، وهي العتيقة.

٩ - مقدمة ابن خلدون ١٢٩.

١٠ - انظر ديوان طفيل الغنوي ١٠٩- ١١٠.

obeikandl.com

عجبي من اختلاف أيمانه أشد من عجبي من معرفته أنساب الخيل"[1]. ومن أقوال ابن الكلبي في هذا الباب: "ومنها الصَّفَا فرس مُجاشع بن مسعود السُّلَمي، وكانت من نَجْل الغَبْراء فرس قيس بن زهير، فاشتراها عمر بن الخطاب[2] بعشرة آلاف درهم"[3]. وهذا المبلغ ليس محصوراً بفرس دون آخر، إذ ذكر ابن الأعرابي ما يلي: "وكانت بَلْعاء فرس الأسود بن رفاعة، وباع سَخْلة منها بعشرة آلاف من خليفة بن واثلة"[4].

فالعرب يعلمون أن الأنجال ترث صفات الآباء والأمهات[5]، ويؤكد هذا قول طفيل الغنوي[6]:

وخَيْلٍ كأَمْثَالِ السِّراحِ مَصُونَةٍ ذَخَائِرَ ما أَبْقى الغُرابُ ومُذْهَبُ[7]

ومِنْ بَطْنِ ذي عَاجٍ رِعَالٌ كأَنَّها جَرَادٌ تُبارِي وِجْهَةَ الرِّيْحِ مُطْنِبُ[8]

أَبُوهُنَّ مَكْتُومٌ وأَعْوَجُ تُفْتَلَى وِراداً وحُوَّاً لَيْسَ فِيهِنَّ مُغْرَبُ[9]

وركز مشهد الخيل كثيراً في ذكر أسماء الخيل واقترانها بأنسابها ذكوراً وإناثاً دلالة منه على أصالتها ومنزلتها وشهرة فرسانها[10]، وذُكر فيه غير ما مرة

---

١ - البيان والتبيين: ٣٠٥/١ وانظر نخبة عقد الأجياد ١٠١- ١٠٤ و١٧٩ و١٩٧.

٢ - المعروف أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم يكن ثرياً، وبهذا ندرك ضخامة ما بذل من أجل فرس.

٣ - أنساب الخيل ١١٦ وانظر الأغاني ١٥٢/١١ والطبيعتان الحية والصامتة ١٨٧.

٤ - أسماء خيل العرب (ابن الأعرابي) ٩٠ وانظر سمط اللآلي ٨٥/٣- ٨٧.

٥ - انظر محاضرات الأدباء ٦٣٧/٤ وحياة الحيوان الكبرى ١٥٥/٢ وديوان العباس بن مرداس ١٢١ و١٣١.

٦ - ديوان طفيل الغنوي ٥٨- ٥٩ وانظر أنساب الخيل ٢٣ والخيل لأبي عبيدة ٦٦ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٧٢/١- ٢٧٣ ووصف الخيل ٥٤ و ما بعدها.

٧ - السِّرَاح: جمع سرحان وهو الذئب. والغراب ومُذْهب: فحلان مشهوران من الخيل.

٨ - ذو عاج: فحل من الخيل.

٩ - مَكْتوم وأعْوج: فحلان من الخيل انظر سمط اللآلي ٨٦/٣.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٤٠ والأصمعيات ٢٤ وسمط اللآلي ٤٥٤/١ والحديث عن ذلك ذو مسارب، انظر الحيوان في الشعر الجاهلي ١٧٤- ١٨١.

obeikandl.com

أكثر من فرس لفارس ما كزَيْد الخيل الذي كان له عدد من الأفراس كدَوُول والهَطَّال والوَرْد[1].

فالاهتمام بالخيل كان مدعاة لإثارة إعجاب الشعراء، حتى صارت لديهم موضوعاً للفخر والاعتزاز والمدح. والتصقوا بها أيما التصاق، وما اختلاف العواطف إلا لاختلاف المواقف وتباين الطبائع وفق الاستجابة للنوازع الإنسانية. وهذا جعل النعمان بن المنذر يباهي بالعرب أمام كسرى فيقول: "وخيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء"[2]، كما وجدنا اختلاف طريقة التعبير المرتبطة بالتفاعل المستمر بين الخيل والذات وضوحاً ودقة وعمقاً من فرد لآخر. فحين أحب العربي المرأة الولود العروب فقد أحب الفرس في بطنها فرس يتبعها فرس[3]. وقد يكون هذا سبباً لما ذهب إليه ابن الكلبي إذ لحظ قاسماً مشتركاً بين النساء الجميلات والخيل الأصيلة وكأن الانتماء واحد[4]. وحين نفت عائشة (رضي الله عنها) تفضيل الخيل على النّساء فإنَّما كان إثباتاً منها لهذا، لأن نفي النفي إثبات، إذ تقول: "أخطأ من يقول: إن الخيل أحسن من النساء"[5]. ولعل ما يقوي ذلك الرأي أننا نجد كثيراً من الصفات المتطابقة بين الفرس والمرأة في مشهد الخيل. فالرشاقة والضّمور والتهادي في المشي اختيالاً وتلوياً من وجوه الشبه بينهما كقول الأعشى[6]:

عَهْدي بهَا في الْحَيِّ قَدْ سُرْبِلَتْ هَيْفَاءَ مِثْلَ المُهْرَةِ الضَّامِرِ

---

١ - انظر شعر زيد الخيل ١٥٤ و١٨١ و١٩٧ وسمط اللآلي ٦٠/١.

٢ - انظر العقد الفريد ٢٣٠/١.

٣ - راجع حاشية ٦ مما تقدم ص ١١٨ وانظر مجمع الأمثال ١٢٤/٢ وحياة الحيوان الكبرى ٣٣١/٢.

٤ - انظر أنساب خيل العرب ١٦، وسمط اللآلي ١٧٩/١ ونخبة عقد الأجياد ٩٤ و٢١٩.

٥ - ثمار القلوب ٢٩٧.

٦ - ديوان الأعشى ١٧٥ ق١٨، وانظر مثلاً: ديوان قيس بن الخيط ٢٣٢ وديوان الحطيئة ٢٧٣ وأسماء خيل العرب (الغندجاني) شعر (شمعلة الضبيّ) ١٤٠- ١٤١ وهو في المؤتلف والمختلف ١٤١.

openkanar.com

وكان الشَّعر الطويل وجهاً آخر للعلاقة بين المرأة والفرس، ولهذا جعل امرؤ القيس فرسه ذات شعر طويل ووافر، وما عهدناه يفعل ذلك. ولعل تعلقه بالمرأة سَبَبٌ لإظهار هذه الصفة، لأن الفرس العتيق لا توصف بذلك[1]. ويأتي مشهد الفرس مباشرة بعد مشهد غزلي يتحدث فيه عن مغامرة مع امرأة يقال لها (هِرّ)، ويعرض لصفة الشَّعر وصفة الإزار خاصة[2]:

لها ذَنَبٌ مِثْلُ ذَيْلِ العَرُوسِ يَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرْ

لها عُذَرٌ كقُرونِ النِّسا ءِ رُكِّبْنَ في يَومِ رِيحٍ وصِرْ

فصفة الخيلاء تظهر عند الفرس من ذيلها الضافي وعند العروس من إزارها الطويل، وكلتاهما تختال في مشيتها. وبهذا يخلق امرؤ القيس نوعاً من التشبيه الغزلي بين المرأة والفرس، وهو في أوقات الصيد لا ينسى صورة صدر الفرس المدمى، فهو أشبه بمداك عروس[3]. ولعل هذه الصورة تحقق له جزءاً من المغامرة العاطفية العالية؛ إذ يمتلئ بالعزة والثقة في ربطه الواعي بين المرأة والفرس في لحظات الاستعلاء والحضور الإنساني الذي ينتصر فيه الجمال على القبح؛ والفتوة على الضعف والعجز؛ والمواجهة على الهروب.

وتظل الصفة قاصرة أمام مشهد المرأة الفرس التي علاها الفارس عند الأعشى[4]:

إذَا ما عَلاَهَا فَارِسٌ مُتَبَذِّلٌ فَنِعْمَ فِراشُ الفَارِسِ المُتَبَذِّلِ

فالمغامرة حقيقية تنبئ بتذليل ظهر الفرس حتى صار موطأ كفراش المرأة.وكل منها يوفر رغبة الحيوية لمظاهر القوة وتجلياتها في الحياة، وهي رغبة تستشعر روح الانتصار على آلام الزمن ومصائبه، ما يشي بأن البهجة تتسع أمام

---

١ - انظر عيار الشعر ١١٦.

٢ - ديوان امرئ القيس ١٧٦- ٦٥، كأنه حذو أبي دواد، انظر شعر أبي دواد ٣٠٦ و ما بعدها.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١ وعبيد بن الأبرص ٧٩.

٤ - ديوان الأعشى ٣٨٧ ق٧٧.

obeikandl.com

عيني الشاعر، مجسدة بصورة الفرس / المرأة. ولعل هذه المغامرة تذكرنا بمغامرة أخرى لمشهد الفرس عند أبي دواد، وهي مغامرة حب متنام، لأنه جعل للمهر شفتين وليس له إلا جحفلتان، لأن الشفتين للإنسان. ولم يقتصر على هذه الصفة بل يشبه فرسه بامرأة متساقطة على الرجال، فيقول[1]:

وبِتْنَا عُرَاةً لَدَى مُهْرِنَا نُنَزِّعُ مِنْ شَفَتَيْهِ الصُّفَارَا[2]

غَدَوْنَا بِهِ كَسِوارِ الهَلُو كِ مُضْطَمِراً حَالِبَاهُ اضْطِمَارا

فالوعي بالمشهد لا يقتصر على الرغبة المضمرة للذة واقتناص الشهوة وإنما تتجاوز ذلك إلى الشعور بالحيوية الجسدية التي يجعلها ردّاً على الضعف والعجز.

ومن مخرج الكلام الحسن الذي يعبر عن ذلك ما طلع به زهير في افتتاح قصيدة له[3] حين جعل الشباب بمنزلة[4] الأفراس التي عُرِّيت أكسيتها في قوله[5]:

صَحا القَلْبُ عَنْ سَلمى وَأَقْصَرَ باطِلُهْ وعُرِّي أَفْراسُ الصِّبا ورَواحِلُهْ

فالشاعر أبدع في رسم هذه الصورة، حين انطلق فيها من حالة السقوط الزمني، وفجيعة العجز الجسدي، وكأنه فَقَد كل مقومات الشباب؛ ما يعني أنه يريد أن يستمتع باللحظات العذبة لانتصار الذات. فالخيل تمثل القدرة والحيوية فهي صورة للشباب عند الرجال والنساء، وإن كانت الأنثى أكثر تمثيلاً لذلك. فعروة بن الورد يشبه نفسه بحصان عتيق يفيض حيوية ونشاطاً ويشبه النِّسوة حوله بإناث الخيل الحديثات النتاج فيقول[6]:

---

١ - شعر أبي دواد ٣٥٢والأصمعيات ق ٦٠ ص ١٩٠ وانظر كتاب الحروف (لابن السكيت) ٩٥.

٢ - الصفار: نبتٌ له شوك.

٣ - يغلب أن يكون طفيل الغنوي سابقاً لزهير في ذلك المعنى، انظر ديوان طفيل ١٠٩- ١١٠.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١٠٩ و(صادر) ١١٥ وأورد سلامة بن جندل مشهد الخيل بعد ذكر الشباب وذهابه، الديوان ٩٠- ٩٦.

٥ - شعر زهير بن أبي سلمى ٤٥.

٦ - ديوان عروة بن الورد (صادر) ٤٨.

openkandil.com

كـأَنِّي حِـصَانٌ مَـالَ عَنْـهُ جِلاَلُـهُ أَغَـرُّ كَـرِيمٌ حَوْلَـهُ العُـوْذُ رَاتِـعُ[1]

وهذا الوصف الإنساني يظهر عند عروة بشكل مغاير حين يجسد صورة إناث الخيل مدركة لأفعَالها، فهي تذب ذكور الخيل عن أولادها. فهذه واحدة منها ترفع يديها لتنحي الذكور عن ولدها فيبدو بلق بطنها أشبه بالبرق في سواد الغيم، وكأن صورة المرأة مضمرة فيها، فيقول[2]:

تَكَـشُّفَ عَائِـذٍ بَلْقَـاءَ تَنْفِـي ذُكُـورَ الخَيْـلِ عَـنْ وَلَـدٍ شَـغُوْرِ[3]

فهذه الصورة البدوية ليست بعيدة عن صور أخرى تتعلق بحياة العرب الحربية، فطالما خرجت الخيل من المعارك كَسَبِيَّة الحرب مُشَعَّثَة الرأس، سَمْلة الثياب، كما يوضحه قول عنترة[4]:

وأَنَّـا نَقُـودُ الخَيْـلَ حتَّـى رُؤوسُـهَا رُؤُوْسُ نِـسَاءٍ لا يَجِـدْنَ فَوَالِيَـا

إذاً، حُمّلت الخيل أعباء العرب في الحرب والسلم، وأصبحت صورة لإظهار نوازع الشعراء الذاتية والفكرية. وهذه النوازع ما كانت لتبدو على هذا الشكل لو لم تكن للخيل مكانة متفردة في حياتهم.

وبناء عليه يبدو مشهد الخيل حالة من حالات الإبداع والابتكار لتصوير الحياة عامة والحربية خاصة، وفق ما يعززه مشهد الخيل والحرب.

٢- مشهد الخيل والحرب

مشهد الخيل والحرب يجسد صورة الفارس النبيل ويتسربل بجملة من القيم الحربية، فيغدو حالة من الخَلْق والإبداع والحس المتميز من خلال الاتصال الفريد بفكرة الإلهام، وكأن الفرس يحوز صفات ليست من صفات البشر.

١- العوذ: الحديثات النتاج من الخيل والإبل، ومفردها عائذ.

٢- ديوان عروة بن الورد (صادر) ٣١.

٣- تكشف عائذ: أي يتكشف البرق تكشف العائذ، والتكشف: أن تَشْغَر الخيل بالرجلين وترفع اليدين حتى يبدو بَلَق بطنها، والشّغْر: رفع الرجلين ورمحهما، وهي صفة العائذ.

٤- ديوان عنترة ٢٢٧.

obeikandl.com

وحين فهم العرب مستلزمات حياة التبدي قربوا الخيل من بيوتهم ثقة منهم بأنفسهم ومهابة لأعدائهم وإظهاراً للاستعداد الدائم للقتال. وقَرَّب لنا مشهد الخيل هذه الصورة حين كان يعبر عن مفهوم القوم للخيل، إذ كانت تعني مروءتهم ونجدتهم وحصنهم ومنعتهم، لأنها أهم مصادر عزتهم، وكأنها شكل للانتماء العربي ذاته من خلال الانصهار بحياة القبيلة الحربية ومفاهيمها. ويؤكد هذا ما وصل إليه أحد الباحثين من إحصاء للأبيات التي قيلت في الافتخار بالخيل في الحرب، فكان نصيب الناحية القبلية مئة وثمانية وخمسين بيتاً والشخصية مئة وأحد عشر بيتاً[1]. فمشهد الخيل والحرب يرينا إعداد الخيل لخوض المعارك وتدريبها على الإغارة التي لجؤوا فيها غالباً إلى الإناث إذا كانت الغارة بعيدة ووثقوا بذكورها في المصادمة في أحايين كثيرة. وكيفما كان الفرس فهو صورة للفارس في إقدامه وإحجامه، يرتاد المجاهل ويصر على التضحية بنفسه وكأنه يملك عقلاً وقلباً لأنه يدرك ما عنده من قدرات، ولا مكان للجبن والخَوَر في عرفه.

وبهذا النزوع النفسي كان الفرس يدخل المعركة وكل فعل له هو فعل للفارس أيّاً كانت صورته ممدوحاً أو مرثياً، في رغباته وآماله ولا سيما إذا اشتجرت الرماح وساورته المخاوف. وفي مثل هذا الموقف قد يبدي تبرماً – وإن ملك جنوناً يستعر حدة ونشاطاً – ولكنه يدفع كل انحراف عن القصد الذي سعى من أجله.

ومشهد الخيل والحرب كسابقه ليس متشابهاً في الحجم إلا أنه يفسر ما يتعلق بالغزو، وكان مشروعاً في قانون البادية. وركوب الخيل عادة عند العرب[2] ولكنهم لا يَعْتَدُون على أحد لمجرد حب الاعتداء. وأسباب الغزو كثيرة أهمها الأسباب الاقتصادية، لأن الأرض الممرعة بقيت مسرحاً للقتال[3]، فوفرة مراعي (نَجْدٍ) جعلت

---

١ - انظر شعر الحرب (د. الجندي) ٢١٧ و ما بعدها .

٢ - انظر سمط اللآلي ٧٨٩/٢ وانظر مثلاً: ديوان عنترة ٢٨٩ وقيس بن الخطيم ٥٠ و٨١- ٨٢ وعبيد بن الأبرص ٥٥ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٨٢- ٢٨٥ وديوان الأعشى ٩٩ و١١٣.

٣ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ٢٠١ وانظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ٨٠- ٨٢.

openkandil.com

القبائل القوية تستقر فيها. أما الأموال وكذلك الخيل ذاتها فقد سببت هي الأخرى حروباً مختلفة، فسراب[1] ناقة البسوس أشعلت حرباً بين بكر وتغلب، وداحس والغبراء[2] أثاراحرباً بين عبس وذبيان، وضربت الأمثال بشؤمهما[3]، ويوم النِّسار كان بسبب سرقة خيل[4] ذي الرقيبة القشيري.

ومن هنا نرى أن العرب يحذرون من تهيّج الحرب[5]، ويعيّرون من أثارها[6] غير أنهم يستعدون لكل مكروه. ولهذا يدربون خيلهم على القتال درءاً للأخطار، ويقربونها من البيوت، لأن ظهورها أدْنى لهم. فحبسها يعني إلقاء المهابة في نفوس الأعداء وإرهابهم بكثرتها، وإمعاناً في إظهار قدرتهم واستعدادهم حتى لا يفكر أحد بشرٍّ. ومشهد المقربات وإعدادها مشهور في الشعر الجاهلي[7]، مثلما يوضحه قوله تعالى: "وأَعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بهِ عَدُوَّ اللّهِ

---

١ - انظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٨٨ والأعشى ٢٢١ وشعر النابغة الجعدي ١٤٣ـ١٤٥ ومجمع الأمثال ١/٣٧٤ـ٣٧٦ وأسماء خيل العرب (الغندجاني) ١٢٩ والقاموس المحيط (سرب).

٢ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٣١١ ودريد بن الصمة ٨٨ وشعر النابغة الجعدي ١٤٢ والمفضليات ٣٥٣- ٣٥٤ والأنوار ومحاسن الأشعار ١/٢٠٩- ٢١١ ورسالة الصاهل والشاحج ٢١٨ والأمالي الشجرية ١ / ١٠٤- ١١٥.

٣ - انظر مجمع الأمثال ١/٣٧٩ـ٣٨٠ وانظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٣٥ والمفضليات ٣٨٣.

٤ - انظر النقائض ٢٣٨ و٣٨٨ و١٠٩٤ والكامل في التاريخ ١/٦١٧ والعمدة ٢/٢٠٩- ٢١٠ ونهاية الأرب ١٥/٤٢١ وانظر شعراء بني قشير ١/٨٦ وأيام العرب ٢/٥٣٨- ٥٣٩.

٥ - انظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ١٨- ١٩ وديوان الأعشى ٧٥ وقيس بن الخطيم ٧٢ و٨١ وانظر كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) ٣٥ ـ ٣٦.

٦ - انظر محاضرات الأدباء ٣/١٨٠ وانظر مثلاً: المفضليات ٤١ ق٧.

٧ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٧٥ وعبيد بن الأبرص ١١٨ و(صادر) ١٢١ وطفيل الغنوي ٣٩ وسلامة بن جندل ١٣٠- ١٣٢ وعنترة ٤١ و٣٠٩ والحادرة الذبياني ٧٤- ٧٥ والأعشى ٢٦٩ والمزرد ٤١ وديوان الهذليين ١/٢٠٣ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٨٥ والأصمعيات ٦٠ و٦٦ والمفضليات ٢٠٦ و٢٥٥ وشرح ديوان الحماسة (المرزوقي) ٢/٧٢٤ والأنوار ومحاسن الأشعار ١/٢٣٤ وحلية الفرسان ١٨٢ .ورسالة الصاهل والشاحج ٦٠٢ ونخبة عقد الأجياد ٢٧، وانظر وصف الخيل ٤٨ و ما بعدها وشعر الحرب في العصر الجاهلي ١٠٥.

obeikandi.com

وعَدُوَّكُم"[1]، ومن أمثلته في الشعر الجاهلي قول سَلَمة بن الخُرْشُب[2]:

يَسُدُّونَ أَبْوابَ القِبَابِ بِضُمَّرٍ إلى عُنَنٍ مُسْتَوْثِقاتِ الأَوَاصِرِ[3]

ومشهد المُقْرَبات عند عامر بن الطفيل متميز بكثرة[4] ذكره له إذا قيس بغيره، كقوله[5]:

للمُقْرَبَاتِ غُدُوٌّحِينَ نُحْضِرُهَا وغارَةٌ تَسْتَثِيرُ النَّقْعَ في رَهَجِ[6]

فما يُفارِقُني المَزْنُوقُ مُحْتَمِلاً رِحَالَةٌ شَدَّها المِضْمارُ بالثَّبَجِ[7]

ويؤكد مشهد المقربات روح القلق من المجهول في زمن تطغى فيه حالات القلق الوجودي وقد حوصر بالنزاع القبلي لإثبات الذات الجماعية؛ أو للدفاع عنها في مواجهة الطامعين. ولهذا فالحديث عن المقربات يعبر عند العرب عن حاجات ومشاعر صنعها عالم الواقع الإجتماعي والإقتصادي، ما يجعله يؤدي وظائف لانراه في غيره. وهذا ما عبر عنه صخر بن الشريد حين قاد تلك المقربات في الثغور وعليها الفتية الصيد كما ترثيه الخنساء قائلة[8]:

وَرُبَّ ثَغْرٍ مَهُولٍ خُضْتَ غَمْرَتَهُ بِالمُقْرَبَاتِ عَلَيْهَا الفِتْيَةُ الصِّيْدُ

إذاً، لم يكن تقريب الخيل عبثاً فهي حصن الرجال وعدتهم إذا ما ألمّ بهم طارئ أو فاجأهم عدو يتربص بهم الدوائر؛ والغفلة، أي أن المقربات تمثل تطلعات الجاهلي

---

١ - سورة الأنفال ٨/ ٦٠.

٢ - المفضليات ٣٧ ق٥.

٣ - العُنَن: الحظائر تُجعل فيها الخيل، مثل الغرف. الأواصر: جمع آصرة، وهي الحبل الصغير تشد به الدابة.

٤ - انظر ديوان عامر بن الطفيل ٣٢ و٣٥ و٧٢.

٥ - ديوان عامر بن الطفيل ٣٥- ٣٦.

٦ - النقع: الغبار. والرهج: ما أثير من الغبار.

٧ - المِضمار: مدة تضمير الخيل، والموضع الذي يتم فيه التضمير. والثَّبَج: وسط كل شيء وأعلاه.

٨ - ديوان الخنساء ٤١.

obeikandi.com

الحذر والواعي والمعبر عن تطلعاته وأحلامه[1]، كقول عبيد بن الأبرص[2]:

مالَنا فيها حُصُونٌ غَيْرُ ما الـ ـمُقْرَبَاتِ الجُرْدِ تَرْدِي بالرِّجَالِ

فالمقربات تستدعي من أفراد القبيلة أن يكونوا مهيئين لكل الاحتمالات الصعبة، وكأنها تشي بحفظ حياتهم من الموت الذي يحتكم إليه قانون القوة في صحراء بلقع. وهذا يؤكد تجليات الواقع الموضوعي، كما يثبت حالة الوعي الجمعي في صميم المجتمع القبلي.

ولهذا كله عُني العرب بالخيل ووقفوا على خدمتها وتدريبها[3]، وعُرف هذا بتضميرها سواء كان هذا بالطعام أم التدريب بالسباق وتعريقها أم الخروج بها في معارك الصيد.

وكان لمظاهر الصَّنعة أشكال كثيرة عرفوها منذ قديم الزمان كما يقول بشر بن أبي حازم[4]:

وَجَدْنا في كِتابِ بني تميمٍ أَحَقُّ الخَيْلِ بالرَّكْضِ المُعَارُ

فالخيل اعتادت التدريب كل صباح وأصيل حتى تهيأت لكل غاية[5]، واكتسبت صفات الكمال وكأنها أخذت من كل حيوان أحس ما فيه[6].

---

١ - انظر مثلاً: ديوان المتلمس ٢٤٩ وديوان المزرد ٣٧ وشرح ديوان لبيد ١٣٤ و٢٨٩ والأصمعيات ١٤١ ق٤٤ وهي في الوحشيات ٤٤.

٢ - ديوان عبيد بن الأبرص (صادر) ١٢٢ و(نصار) ١١٨.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٤٠ و٢٠٩ وعنترة بن شداد ٣١١ وقيس بن الخطيم ٢٣٢ والأَفْوَه الأودي ٩ والأعشى ١٣٥ وشعر النابغة الجعدي ٤٧ و٦٨ وديوان المزرد ٣٧ والحطيئة ٧٥. والمفضليات ١٦٤ و٣٠٦ وحلية الفرسان ١٨٢ ونخبة عقد الأجياد ٢٠٥-٢٠٩ وانظر صحيح مسلم ١٣/١٤-١٥.

٤ - ديوان بشر بن أبي خازم ٧٨ وانظر محاضرات الأدباء ٢/٤٧٩.

٥ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم والأعشى ٣٨٥ وشعر زهير ١٥٥ وديوان المزرد ٣٧.

٦ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٥٢-٣٥٣ وديوان امرئ القيس ٢٦٦ والحطيئة ٩٢ والأنوار ومحاسن الأشعار ١/٢٦٦.

obeikandl.com

ومن أمثلة ذلك قول زهير[1]:

وخَرَّجهـا صَـوارِخُ كُـلِّ يَـوْمٍ فقَـدْ جَعلَـتْ عَرائكُهـا تَلِـينُ

فالصنعة أَدَّت إلى ارتباطها بفرسانها، وإعدادها بشكل جيد كقول طرفة[2]:

أَدَّتِ الـصَّنْعَةُ فِي أَمْتُنِهـا فَهْيَ مِنْ تَحتُ مُشِيْحَاتُ الحُزُمْ[3]

واكتملت قدرتها، وحللت فضول أبدانها، والتعريق واحد من باب التضمير، كقول عدي بن زيد[4]:

فذَلَّقْتُـهُ حتَّـى تَرَفَّـعَ لَحْمُـهُ أُداوِيْـهِ مَكْنُونـاً وأَرْكَـبُ وادِعَـا

واهتمت الصنعة بحوافرها وتقويتها، وتصليبها، وصُنعت السروج لها[5]، كقول عامر بن الطفيل[6]:

لقَـدْ تَعْلَـمُ الخَيْـلُ المُغِيْـرةُ أَنَّنَـا إذا ابْتَـدَرَ النَّـاسُ الفَعـالَ أَسُـودُهَا

علـى رَبِـذٍ يَـزْدَادُ جَـوْداً إذا جَـرَى وقَـدْ قَلِقَـتْ تَحْتَ السُّرُوجِ لُبودُهَـا[7]

وبهذا ينقل مشهد الخيل إعداد الجاهليين لخيولهم وعنايتهم بها، وتأديبها للحرب والصيد، حتى ينتفي عنها كل عيب كقول عوف بن عَطِيَّة بن الخَرِع[8]:

وأَعْـدَدْتُ للحَـرْبِ مَلْبُونَـةً تَـرُدُّ عَلَـى سائِـسِها الحِمـارَا

---

١ - شعر زهير بن أبي سلمى ١٥٦ وشرح ديوان زهير ١٨٩.

٢ - ديوان طرفة بن العبد ١١٣ وانظر فيه ٦٩.

٣ - الصنعة: القيام على الخيل بالعلف والتدريب. و"تحت مُشِيْحات": أي جادات سريعة، والمشيح: الذي لحق بطنه بظهره فضمر.

٤ - ديوان عدي بن زيد ١٤١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٨٦ و٢٣٣ وبشر بن أبي خازم ١١١ وعنترة ١٤٠ و٢٠٢ وشعر زهير بن أبي سلمى ١٠٩ و١٥٦ والمفضليات ٢٩٧.

٦ - ديوان عامر بن الطفيل ٤٥.

٧ - الرَّبذ: السريع. والجَوْد: الجري، كلما جرى ازداد نشاطاً. واللَّبْد: ما يوضع تحت السرج.

٨ - المفضليات ٤١٣ ق١٢٤ وانظر فيه أيضاً ٢٩٧- ٢٩٨.

obeikandl.com

كُمَيْتـا كحَاشِـيَةِ الأتْحمِـيِّ لَـمْ يَـدَعِ الـصُّنْعُ مِنْهـا عُـوارَا[1]

وحين عُوِّدت شراب اللبن كانت تعُوَّد الإقدام في الغارة[2]، ووطءَ القتلى دون أن تعرف التراجع في القتال[3]، ومن أمثلة ذلك قول زيد الخيل[4]:

عَـوِّدُوْهُ كالَّـذي عَوَّدْتُـهُ دَلَـجَ اللَّيْـلِ وإيطـاءَ القَتِيْـلِ

فالفرس يكر ويفر في المعركة ولا يتراجع مهما تتحدر السِّهام في صدره، ولهذا كان من مستلزمات التأديب أن يُضرب على شروده من الجرحى والقتلى، ويُلَوِّح به بالوعيد، مثلما يُضرب على العثار ولا يضرب على النفار لأنه يرى ما لا يراه فارسه[5]. أما إذا لم يغن الحذر من القدر وعثرت الخيل في المعركة تَعوَّد الفرسان أن يدعوا لها (دَعْ دع) تيمناً بسلامتها كقول مالك بن حريم[6]:

وتَهْـدي بـيَ الخيـلَ المُغِـيرةَ نَهْـدَةٌ إذا ضَـبَرَتْ صَـابت قَوَائِمُهـا مَعَـا

إذا وَقعَـتْ إحْـدَى يـديها بثَبْـرَةٍ تجَـاوبَ أَثنَـاءُ الـثَّلاثِ بِـدَعْ دَعَـا[7]

وما زالت خيل بعض القوم تُهيَّأ حتى لا تلحقها الخيول، وكي تتخلص من المواقف الحرجة كقول المُرَقِّش الأصغر[8]:

---

١ - الأتْحَمِيّ: ضرب من البرود، منسُوب إلى أتحم باليمن. والعُوَار: العيب.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الحادرة الذبياني ٧٧ وعامر بن الطفيل ٣٢ و١٠٥ والأعشى ٢٨٥ و٣٨١ والعباس بن مرداس ٩ و٦٣ و٦٥ و٧٠ و١٢٤.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٠٦ وبشر بن أبي خازم ٢٩ و٨٧ و١٢٦ و١٦٦ وطرفة بن العبد ٨٨ ودريد بن الصمة ٤٨ وعامر بن الطفيل ٢٥ و٢٦ وعنترة بن شداد ٢٩٥ و٣٠٧ والخنساء ٥٥ و٦٧ و١٢١ والحطيئة ١٨٧ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٨٥ والأصمعيات ١٤٣ والمفضليات ٦٦ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٣٧/١ و٢٥٩.

٤ - شعر زيد الخيل ٢٠١.

٥ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٢٨٣ و٣٢٢ والمفضليات ٣١٩ ق ٩١ ومحاضرات الأدباء ٦٣٨/٤.

٦ - الأصمعيات ٦٦ ق١٥ وهي في الوحشيات ٢٢.

٧ - النَّهْدة: المرتفعة الخَلْق. وضَبَرَت: جمعت قوائمها وثبت فعل المقيد في عَدْوه. وصابت: وقعت وقعاً. والثبرة: الهوة. ودع دع، في معنى: قم وانتعش واسلم.

٨ - المفضليات ٢٤٣ ق٥٥ وانظر مثلاً: ديوان دريد بن الصمة ٧٧.

obeikandl.com

ويَسْبِقُ مَطْرُوداً ويَلْحَقُ طارِداً ويَخْرَجُ من غَمِّ المَضِيْقِ ويَجْرَحُ

فإذا ما دعا داعي الحرب علا الفرسان ظهورها، وشرعوا يحثونها بقولهم: هَبي، واقدم واقدمي، وأَخِ وأَخِّري، وهَلِ وهلا، ومن أمثلة هذا قول الأعشى[1]:

وتُسْمَعُ فِيهَا هَبِي وَاقْدُمِي وَمَرْسُونُ خَيْلٍ وَأَعْطَالُهَا[2]

ويطير القوم مستصرخين إلى ساحات المعارك، كقول طفيل الغنوي[3]:

دَعَا دَعْوةً يالَ الجُلَيْحَاءِ بَعْدَمَا رأَى عُرْضَ دَهْمٍ صَرَّعَ السِّرْبَ مُثْعَلِ[4]

فقال: ارْكَبُوا أَنْتُمْ حُماةٌ لِمِثْلِها فَطِرْنَا إلى مَقْصُورَةٍ لم تُعَبَّلِ[5]

فجاءَتْ بفُرْسَانِ الصَّبَاحِ عَوابِساً سِراعاً إلى الهَيْجَا مَعَاً غَيْرَ عُزَّلِ

فرؤية الجاهلي للقوة والمنعة مرتبطة بالوجود العزيز والكريم، وكل منهما مرتبط بالخيل وساحات المعارك...إنها رؤية تستند إلى الذات القبلية المتماسكة كتماسك صفات الخيل المدربة على القتال.

ولهذا لا ضير أن نجمل صفات الخيل، وهي واحدة في مشهد الصيد[6] ومشهد الحرب والسباق. فلحمها قوي كحوافرها[7]، وجسمها متين وضامر كاليَعْسُوب،

---

١ - ديوان الأعشى ٢٠٣ وانظر أيضاً مثلاً آخر: ديوان طفيل الغنوي ٣٩ ـ ٤١ والخنساء ١٦.

٢ - أعطالها: أي خليت من القلائد.

٣ - ديوان طفيل الغنوي ٩١.

٤ - المثعل: المزدحم بعضه فوق بعض من كثرته. والجليحاء: شعار لهم يعرفون به. والسِّرْب، هنا ـ المال.

٥ - المقصورة: الخيل المحبوسة في الديار. ولم تعبل: لم تُرَد: أو تطرح.

٦ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٢٨٤ كالسِّيْد و٢٨٥ قوة الحوافر و٢٨٧ و٢٩٩ النشاط والقوة و٣٠٠- ٣٠٧ النشاط والقوة و٣٠٦ كالعصا وديوان امرئ القيس ٤٩ كالريح و١٦٧ كالمطر و١٧٣ كالباز وشعر زهير ٥٣ كالشؤبوب ، وانظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ١٠٩- ١١٢.

٧ - انظر مثلاً ديوان امرئ القيس ٨٦ وبشر بن أبي خازم ٢٨ وعنترة ٢١١ و٢٤٣ و٢٦١ ودريد بن الصمة ٥٧ وعلقمة الفحل ٧٣ و٩ وقيس بن الخطيم ١٩٤ والخنساء ٧ وشعر زهير ١٠٧ و١٥٥.

obeikandl.com

وغير ذلك مما أكمل صفاتها[1]، كما أنها تظل تراقب وتأمل أن تنال من عَدُوّها في الصباح، ولهذا لا تخطئه إذا أشرفت عليه. وباختصار فهي كاملة الخَلْق والخُلْق في صفاتها ونسبها[2]. ولو أخذنا صفة السرعة مثلاً لرأيناها كما يلي: فهي تتقدم كتلة واحدة كالعصا[3]، وتندفع إلى المعركة كالمطر[4]، أو الجراد الزاحف[5]، الذي زفَّته الريح[6]، أو القطا والحمام[7]، أو رعال الطير[8]، وإذا هجمت وسط الخيل كانت كالقداح[9]، أو السِّيْد العَمَرَّد[10].

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٢٥ و٢٦٧ وانظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ١١٢- ١١٥ والطبيعتان الحية والصامتة ١٨٩- ١٩٣ و١٩٥ و ما بعدها.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٤٠ و١٦٦ و١٧٣ وعلقمة الفحل ٨٨- ٨٩ وعبيد بن الأبرص ٢٣ وعنترة ٢٤٣ و٢٩٩ و٣٠٤ وطرفة بن العبد ٦٨- ٦٩ و١١٢ و١١٥ وشعر زهير ١٥٧ و٢٥١- ٢٥٢ والمفضليات ١٠٤ ق١٨ و٢٨٢ ق٧٤ وديوان الأعشى ٢٣٩.

٣ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ٧٤ وشعر أبي دواد ٣٠٦ وديوان الأعشى ٣٣٣ والمفضليات ١٠٤ و٢٧٧.

٤ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ١٠٨ ودريد بن الصمة ٥٦.

٥ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٧٩ و١٣٦ وطفيل الغنوي ٣٦ و ٥٩ وبشر بن أبي خازم ٧٥ ودريد بن الصمة ٤٧ والنابغة الذبياني ١٨٧ والأعشى ٢١١ وقيس بن الخطيم ٢١٤ والحطيئة ١٦٧ وشعر خفاف بن ندبة ٤٧٧ والأصمعيات ١٤٧ والمفضليات ١٣١.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ٥١ و٥٢ و١٣١ والحطيئة ١٠١.

٧ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٢١٢ وعبيد بن الأبرص ٢٦ و٥٩ ودريد بن الصمة ٥٥ والخنساء ٧ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٤٩ والمفضليات ٢٥٨.

٨ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٤٤ و ٥٩ و ٦٠ وعبيد بن الأبرص ٦ وعنترة ٢٣٢ و٢٤١ و٢٧٩ وعمرو بن كلثوم (كرنكو) ٥٩٦ والنابغة الذبياني ٢٣ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٥٥ وبشر بن أبي خازم ٩٧ وطرفة ٧١.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عامر بن الطفيل ١١٧ و١٢٩ وعبيد بن الأبرص ١٠٢ و١٠٩ وعنترة ٣٣٣ وعمرو بن كلثوم (كرنكو) ٥٩٦ وعلقمة الفحل ٤٧ ودريد بن الصمة ٥٨ وبشر بن أبي خازم ١٤١ والأعشى ٤٥ و٢٦٩ و٣٧٧ والنابغة الذبياني ١٢٨ و١٨٠ والعباس بن مرداس ٩١ والمفضليات ٩٦ وشعر عمرو بن معد يكرب ٥٩ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٣٦/١.

١٠ - انظر مثلاً: ديوان طفيل ٦٣ وعامر بن الطفيل ٥٠ و١٣٠ وعبيد بن الأبرص ٦ ودريد بن الصمة ٥٠ و١٠٢ وسلامة بن جندل ٢٤٥ والحطيئة ١٧٤ وشعر زيد الخيل ١٦٣ و١٨١ وربيعة بن مقروم ٢٥٠ والأصمعيات ٥٤ ق١٢ والمفضليات ٦٦ و٢٨٠ وديوان الخنساء ٦٧ و٦٩ (صادر).

obeikandl.com

ففرس امرئ القيس تجسد قوة كامنة فيها وفي المشبه به (العُقَاب). وهو يلجأ إلى تفصيل ذلك في المشبه أو المشبه به[1]، وقد يعمد إلى الإجمال في أحدهما[2]، كأنه يحتذي أثر الشاعر أبي دواد الإيادي[3].

ولعل ذلك يوضح الاتفاق النفسي للفرسان والشعراء في تقدير قيمة الخيل، وصفاتها في الحرب ، ولا سيما حين تثير الغبار حتى يسد الفضاء[4]، بعد أن كانت تملأ الأرض في مضارب الحي، كقول طفيل الغنوي[5]:

إِذَا هَبَطَتْ سَهْلاً كَأَنَّ غُبَارَهُ ... بجَانِبِهِ الأقصَى دَوَاخِنُ تَنْضُبِ[6]

كَأَنَّ رِعَالَ الخَيْلِ لَمَّا تَبَدَّدَتْ ... بَوَادِي جَرَادِ الهَبْوَةِ المُتَصَوِّبِ[7]

خَدَتْ حَوْلَ أَطْنَابِ البُيُوتِ ... مَرَاداً وإِنْ تُقْرَعْ عَصَا الحَرْبِ تُرْكَبِ[8]

فلَمْ يَرَهَا الرَّاؤونَ إلاَّ فُجَاءَةً ... بوادٍ تُناصِيهِ العِضَاهُ مُصَوَّبِ[9]

ولم يكن الإكثار من الشواهد الشعرية المعبرة عن مشهد خيل الحرب في مكونات وظائفه إلا لأنها صورة فنية ورمزية للذات القبلية المتركزة حول رؤية القلق الوجودي الذي تتقاطع فيه الحياة بالموت، والبقاء بالفناء، والصراع بالطمأنينة والسكينة، والخصب بالجدب...ولم يكن إعداد الجاهلي لخيل الحرب من أجل

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٢٥- ٢٢٩.

٢. انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٤٦ و١٨٧- ١٨٨.

٣ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٠٤- ٣٠٥ و٣٥٢

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٣٣ وأوس بن حجر ١٢١ والأعشى ١٢١ و١٦٩ و١٧٧ وعنترة ٣١٠ والخنساء ٦٢ و١٣٠ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٥١- ٢٥٢ وانظر وصف الخيل ١٤٩ و ما بعدها.

٥ - ديوان طفيل الغنوي ٣٥ ـ ٤١.

٦ - تنضب: شجر له دخان أبيض.

٧ - الرعال: جمع الرعلة وهي القطعة. وبواديه: أوائله. والهبوة: الغُبرة.

٨ - خَدَى الفرس: أسرع وزج قوائمه. وسَوَّفت: شمت، وأحكمت فيما تصنع. ومَرَاد: حيث ترود.

٩ - العِضاه: الشجر العظيم الذي فيه شوك. وتُنَاصيه: تجاريه وتباريه في الارتفاع ويتصل بعضه ببعض. ومصوب: منصب.

opelkanal.com

الاعتداء على الآخر، وإنما كان ذلك منه بحثاً عن التحرر والخلاص من القهر والظلم والاستغلال والفقر والجدب؛ أي ما كان يندفع إلى قلب المعركة إلا للحفاظ على حياته، والتوازن الاجتماعي المرجو عنده ما جعله يقيم الأحلاف تحقيقاً لتلك الغاية.

ولا ضير علينا أن نذكر شواهد أخرى تعبر عن رفض الجاهلي لحالة السقوط في العجز والقهر، فهو لا يريد أن يغدو لقمة زائغة لجبروت الأعداء....

فالخيل تفاجئ الأعداء حيث هُم فتثير الرعب في نفوسهم كفعل السَّعالي[1]، وطالما اعتادت مفاجأة العدو صباحاً وليلاً مهما تكن الأرض بعيدة[2]، كقول قيس بن الخطيم[3]:

صَبَحْنَاهُمُ شَهْبَاءَ يَبْرُقُ بَيْضُهَا تُبينُ خَلاخِيلَ النِّساءِ الهَوَارِبِ

وآثر الجاهليون إناث الخيل في الغارة[4]، لأن صوتها حمحمة كأنه يتكسر في حلوقها. ومن أمثلة هذا قول عنترة[5]:

والخَيْلُ تَعْلَمُ حِيْنَ تَضْ بَحُ في حِياضِ المَوْتِ ضَبْحَا

وأرسى هذا المفهوم قولهُ تعالى: "والعَادِياتِ ضَبْحاً، فَالمُورياتِ قَدْحاً، فالمُغِيرَاتِ صُبْحاً"[6] على حين قَلَّ استخدام الذكور في الغارة لأنها ذات صهيل وجلبة[7].

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١١٦ وعنترة ٣١٨ ودريد بن الصمة ٣٦ و١١٢ والخنساء ١٤٥.

٢ - انظر مثلاً: ديوان عروة (صادر) ٤٢ وعنترة ٣٠٥- ٣٠٦ وعمرو بن كلثوم ٥٩٦- ٥٩٧ و٦٠١ والأعشى ٧٣ و١١٧ و١٩٧ و٢٠٣ والنابغة الذبياني ١٣٥ و١٧٣- ١٧٤ والأصمعيات ١٤٧ ق٤٧ والأنوار ومحاسن الأشعار ١٦٢/١ و٢٣٠ و٢٣١ و٢٣٤ و٢٤٤ والعقد الفريد ٧٨/٣.

٣ - ديوان قيس بن الخطيم ٩١ وانظر فيه أيضاً ٨٤ و١٨٤ و٢٢١ وانظر مثلاً آخر: ديوان العباس بن مرداس ١٣١.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٣٣٢ وقيس بن الخطيم ٨٥- ٨٦ والمفضليات ٣١ ق و٣٣ ق٣٠.

٥ - ديوان عنترة ٣٣٣ وورد في اللسان (ضَبح) وانظر حياة الحيوان ٢١٢/٢ ووصف الخيل ١٩٦.

٦ - سورة العاديات ١٠٠/١٠٣.

٧ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٤١ وديوان عامر بن الطفيل ٥٧ و٩٤- ٩٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٨٧ وشعر النابغة الجعدي ٨٧ ونخبة عقد الأجياد ٤٥ ووصف الخيل ١٧٢- ١٧٥ و١٩٦.

obeikandl.com

كقول أفنون التغلبي[1]:

رَمَيْنَـــاهُمْ بِـــأرعَنَ مُـــشْمَخِرٍّ يُهَـــدُّ لِـــصَوتِهِ صُـــمُّ الجِبَـــالِ

ولكـن اسـتخدام الـذكور لم يكـن ممتنعـاً في الغـارات البعيـدة، كقـول الأعشى[2]:

وأَعْـــدَدْتُ للحَـــرْبِ أَوْزَارَهَـــا رِمَاحـــاً طِـــوالاً وخَـــيْلاً ذُكُـــورَا

وهـذا يعـني أن الـذكور والإنـاث تـستخدم في مفاجـأة العـدو[3]، وإن اسـتأثرت الذكور في المصادمة ـ غالباً[4] ـ ، ومن أمثلة ذلك قول ربيعة بن مقروم[5]:

ولقَـدْ شَـهِدْتُ الخَيْـلَ يـومَ طِرادِهَـا بِـسَلِيمِ أَوظِفَـةِ القَـوائِمِ هَيْكَـلِ[6]

مُتَقَـاذِفٍ شَـنْجِ النَّـسَاعَبْلِ الـشَّوَى سَـبَّاقِ أَنْدِيَـةِ الجِيَـادِ عَمَيْثَـلِ[7]

لَـوْلا أُكَفْكِفُـهُ لكَـادَ إذا جَـرَى مِنْـهُ الغَـرِيمُ يَـدُقُّ فـأسَ المِسْحَلِ[8]

---

١ - الأنوار ومحاسن الأشعار ٢٢٨/١.

٢ - ديوان الأعشى ١٣٥.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٤٤ وعامر بن الطفيل ٤٩- ٥٠ ودريد بن الصمة ٧٥ والأعشى ١٦٩ و١٩٧ والنابغة الذبياني ١٣٣ وشعر عمرو بن معد يكرب ٥٠- ٦١ و٦٣ والمفضليات ٤٢ ق٧ و٦٦ ق١٢ وانظر وصف الخيل ١٩٦ وشعر الحرب في العصر الجاهلي ٨٢ وبعد والطبيعتان الحية والصامتة ٧٥- ٧٦.

٤ - انظر مثلاً: ديوان طرفة بن العبد ٩٦ وعنترة ٢١٦ و٢٢١ و٢٤٤ و٢٥٩ و٢٩٥ و٣٠٦ و٣٣١ ودريد بن الصمة ٥٥ والحادرة الذبياني ٩٣ والأعشى ٢٢٣ و٢٩٧ و٣٨٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٨٧ وشعر زيد الخيل ١٥٣ والنابغة الجعدي ٨٧ و٨٨ والمفضليات ١٠٤ و١٨٥ وانظر حياة الحيوان الكبرى ٢١٢/٢ ونخبة عقد الأجياد ٤٥.

٥ - شعر ربيعة بن مقروم ٢٦٨- ٢٦٩.

٦ - الأوظفة: ما فوق الحافر من الفرس. والهيكل: الضخم العظيم.

٧ - شنج النسا: عرق صلب، وهو عرق بين الفخذين. والعَبْل: الضخم. والشوى: القوائم. والعَميْثَل: المختال في مشيه. وأندية الجياد: المُضْمَرة من الجياد.

٨ - الغَرِيم: العَدْو الشديد.

obeikandi.com

فمشهد الخيل والغارة يحمل دلائل مشرقة، لأن روح المعرفة تتركز فيه كما تتركز روح المغامرة والبحث عن الحياة الأفضل، فالاعتزاز بالذات يحقق صفة الإشراق في العناصر التي تقوي مظاهر القوة والمنعة....، لهذا فالخيل تراقب كل حركة تظهر حولها، وتصغي إلى كل همهمة من الفرسان، وتنطلق مباراة أعنتها حتى نهاية المعركة كما لو أنها على سباق معها، وكأنها هي العازمة على كسب النصر[1]، ويوضح ذلك قول خِدَاش بن زهير[2]:

وجَـــرْداً في الأعِنَّـــةِ مُـــصْغِيَاتٍ حِـدَادَ الطَّـرْفِ يَعْلِكْـنَ الحَدِيْـدَا

جَلَبْنَـا الخَيْـلَ سَـاهِمَةً إِلَـيْهِمْ عَـوَابِسَ يَـدَّرِعْنَ النَّقْـعَ قُـوْدَا

وهي تباري الرماح[3] التي تُعْرَض فوقها إظهاراً للبأس، وكانت توضع موازية لخدودها[4]، كقول النابغة الذبياني[5]:

لهُـنَّ عَلَـيهِمْ عَـادَةٌ قَـدْ عَرَفْنَهَـا إذا عُـرِّضَ الخَطِّـيُّ فَـوْقَ الكَواثِـبِ

ويبدو أن كل قبيلة اشتهرت بعادة دون أخرى لعرض الرماح، فالخيل المعارضة لها تدل على بني عمرو بن تميم، والناصبة لها تدل على بني مالك بن حنظلة، والخيل الشماطيط التي تكون الرماح عند آذانها تميز بني يربوع[6]. وقد يكمن في ركوب الخيل طلباً للثأر جملة من العادات والتقاليد تختلف كاختلاف النزوع

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٢١٢ وعبيد بن الأبرص ٢٣ و٥٩ و١٢٣ (وصادر) ٤٣ و٧٧ و١٣١ وطفيل الغنوي ٣٠ و ٣٦ و٤١- ٤٢ ودريد بن الصمة ١١٢ وعامر بن الطفيل ٨٤ و١١٨ والأعشى ٥٩ و٦٩ و١٣٥ والنابغة الذبياني ٢٣ وشعر عمرو بن شأس ٢٥ والمفضليات ٦٩ وديوان العباس بن مرداس ١٤٦.

٢ - شعر خداش بن زهير ٤٣- ٤٤ والحماسة الشجرية ١/١١٦، والرواية مختلفة.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٧٤ وطفيل الغنوي ٢٩و٣٣ والأعشى ٣٨٥.

٤ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ١٢٩و ١٣١ والحادرة الذبياني ٨٦ والخنساء (صادر) ٥١ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٨٧ وسمط اللآلي ٨٨١.

٥ - ديوان النابغة الذبياني ٤٣ وانظر فيه أيضاً ١٦٨.

٦ - انظر النقائض ١/٧٠ وشعر الحرب في العصر الجاهلي ٤٣- ١٤٤.

obeikandl.com

الفردي والنفسي[1].

وتبرز مشاهد الخيل والحرب صفة الخيل المقاتلة في المعركة، وتدل صورها الفنية على معطيات إنسانية وفكرية عظيمة، لعل من أهمها أن الخيل تعلم ما في نفوس فرسانها وتدرك معنى تصرفاتهم[2]، كقول سلامة بن جَنْدل[3]:

والخَيْلُ تَعْلَمُ مَنْ يَبُلُّ نُحُورَهَا بِدَمٍ كماءِ العَنْدَمِ المُهَرَاقِ[4]

فهي تعوَّدت الحبس في المعركة وتلقّي الطعنات مثلما تعوَّدت الغارة، فلا تنحرف عن غايتها ولا تشتكي شدة وقع السِّهام بصدورها وإن بللتها بالدم[5]، لأنها ما عرفت التردد أو التراجع كقول ربيعة بن مقروم[6]:

تُعَوَّدُ في الحَرْبِ أَنْ لا بَرَاحَ إذا كُلِّمَتْ لا تَشَكَّى الكُلُوما

فالخيل في المعركة صائمة وغير صائمة وأخرى تعلك اللجما[7]، وكلها صابرة، قوية المراس، وهي تطلب الأعداء كما لو أنها تطلب وليداً لها[8]، أو كأنها تأخذ بثأر[9]، ويشتد هجومها كشدة تعلقها بفارسها وكأن روحيهما في جسد واحد. وقد يُدرَك مثلُ هذا من قولِ ثعلبة بن عمرو العبدي ومن خلال لفظ (بللت) خاصة[10]:

---

١ - انظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ٢٨٤- ٢٨٥ والحيوان في الشعر الجاهلي ١٧٥ ـ ١٨١.

٢ - انظر مثلاً: ديوان الخنساء ٧ ودريد بن الصمة ٢٨ وعامر بن الطفيل ٣٢ و٤٥ و٦١ وعروة ٥٨ وعنترة ٢٠٧ و٢٥٠ والنابغة الذبياني ٨٥ وشعر عمرو بن معد بن يكرب ١٠٥ والنابغة الجعدي ٨٨- ٨٩.

٣ - ديوان سلامة بن جندل ١٥٤.

٤ - العَنْدم: دم الأخوين.

٥ - انظر مثلاً: ديوان الحادرة الذبياني ٧٥ وعنترة ٣٠٤- ٣٠٧ والمزرد ٢٤ والعباس بن مرداس ٧٠ والأصمعيات ٦٤ ومحاضرات الأدباء ١٤٩/٣ وانظر وصف الخيل ١٥٥- ١٧١.

٦ - شعر ربيعة بن مقروم ٢٨٥ وهو في المفضليات ١٨٥ ق ٣٨ وشرح المفضليات ٦٨٣/٢.

٧ - انظر ديوان النابغة الذبياني د. (شكري فيصل) ١١٢.

٨ - انظر مثلاً: ديوان الأفوه الأودي ١٢ والمفضليات ٦٥ ق١٢.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١٣٣ ودريد بن الصمة ٢٨ والأصمعيات ١١٢ ق٢٩.

١٠ - المفضليات ٢٨٢ وشرح المفضليات ٩٩٩/٢.

openkandil.com

بَلِلْتُ بها يَوْمَ الصُّرَاخِ وبَعْضُهُمْ يَخُبُّ بِهِ في الحَيِّ أَوْرَقُ شَارِفُ[1]

ولعل هذا ما جعل شهرة لأفراس دون غيرها[2]، وتبرز في هذا الباب الخَذْوَاء فرس طفيل الغنوي، وتظهر صورتها في شكل بشري فهماً وتصرفاً، وكأنها المثال الأرحب لفروسية طفيل، لأن المشهد يضج بصفات الأصالة والشجاعة والقوة والتصميم على الفوز، بل لا يتوقف عند هذا وإنما يظهر مزية قومه. وبهذا لا نستطيع أن ننزع صورتها وفعلها عن فارسها، فكل فعل لأحدهما هو فعل للآخر، فيقول[3]:

فما بَرِحُوا حتَّى رأَوْهَا تَكُبُّهُمْ تُصَعِّدُ فِيهِمْ تَارَةً وتُصَوِّبُ
يَقولُونَ لَمَّا جَمَّعُوا الغَدْوَ لَكِ الأُمُّ مِنَّا في المَواطِنِ والأَبُ
وقَدْ مَنَّتِ الخَذْواءُ مَنَّاً عَلَيْهِمُ وشَيْطانُ إِذْ يَدْعُوهُمُ ويُثَوِّبُ[4]

ومشهد الخيل والحرب عند طفيل الغنوي مقصود لذاته لأنه مظهر من فروسية قومه واعتزازهم بخيلهم التي تجلب لهم النصر لأنها تملك مقومات الوصول إليه. وظهر هذا في أكثر من قصيدة ولا سيما بائيته المشهورة، ومنْها ندرك أن الخيل حصون للغنويين فتراها تقبل وراداً وحُوَّاً كُمْتاً كأن متونها طُلِيَت بالذهب أو أشربت به، فيقول[5]:

إِذا قِيْلَ نَهْنِهْهَا وقَدْ جَدَّ جِدُّهَا تَرَامَتْ كخُذْرُوفِ الوَلِيدِ المُثَقَّبِ
قَبَائِلُ مِنْ فَرْعَي غَنِيٍّ تَوَاهَقَتْ بها الخَيْلُ لا عُزْلٍ ولا مُتَأَشِّبِ[6]

---

١ - بلِلت بها: ملكتها. والصراخ: إجابة المستصرخ. ويَخُبُّ: من الخبب. وهو ضَرْب من السَّيْر. والأوْرق: لون الرماد وهو ألأم الإبل. والشارف: الهَرِم الكبير.

٢ - راجع كتاب (الحيوان في الشعر الجاهلي) ١٧٤ ـ ١٨١ ففيه حديث مركز حول ذلك.

٣ - ديوان طفيل الغنوي ٦٨.

٤ - الخَذْواء: اسم فرس طفيل. وشيطان: هو شيطان بن الحكم الغنوي.

٥ - ديوان طفيل الغنوي ٣٠- ٣٢.

٦ - تَوَاهقت الخيل: تسايرت وتَبَارَتْ في السير. والتَأشُّبُ: التجمع والتفاف الشيء بعضه على بعض.

obeikandl.com

جَلَبْنَا مِنَ الأَعْرَافِ أَعْرافِ غَمْرَةٍ وأَعْرَافِ لُبْنَى الخَيْلِ يا بُعْدَ مَجْلَبِ[1]

بَنَاتِ الغُرَابِ والوَجِيْهِ ولاَحِقٍ وأَعْوَجَ تَنْمِي نِسْبَةَ المُتَنَسِّبِ

وِرَاداً وحُوّاً مُشْرِفاً حَجَبَاتُهَا بَنَاتِ حِصَانٍ قَدْ تُعولِمَ مُنْجِبِ[2]

وكُمْتاً مُدَمَّاةً كأنَّ مُتُونَهَا جَرَى فَوْقَها واسْتَشْعَرَتْ لَوْنَ مُذْهَبِ[3]

ويشدد على صفة الانتماء المميّز لها من غيرها؛ وما هذا إلا تأكيد لتميزه وتميز قومه بالصفاء والنقاء والقوة والشجاعة...وقد عرض ذلك كله بلغة دقيقة تعبر عن التوازي بين الشكل والمضمون في وحدة العناصر الثقافية والاجتماعية... أي أن تراكيب طفيل تمتص حيوية اللغة؛ في إيجازها، وتكثيف معانيها، وكل منها يرسي الإشراق والجمال في صورها... ولذا كله استحق مرتبة الفحولة التي نسبها الأصمعي له بصفة الخيل[4].

وهذا المشهد قبل غيره يضعنا في صميم ساحة المعركة وقتال الخيل فيها، وقد ظهرت إما صورة الممدوح أو المرثي وإما صورة لفرسانها، وفق مبدأ واحد وهو إسناد الفعل إلى الخيل في الحرب والصيد، وكأن العلاقة انتهت إلى الاختلاط في الفعل والروح مع الفرسان[5].

فهناك انصهار وجداني في التصور الذهني الفني المشكِّل. لبنية النص المعبرة عن استحواذ فكرة القتال، ما جعل الموضوع الشعري يدور حول تجربة الحرب عند

---

١ - الأعراف، وغمرة، ولبنى: مواضع.

٢ - وِرَاداً: حُمْراً. والحَجَبَات: جمع حَجَبَة، وهي رأس الوَرِك الذي يلي الخاصرة. وتُعُولِمَ: علم.

٣ - المُدَمَّاة: تضرب كُمْتَتُها إلى الحُمْرة. والاستشعار: الاستشراب.

٤ - انظر فحولة الشعراء ١٠.

٥ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٥٨ و٦١ و١١٤ وبشر بن أبي خازم ٢٨ و١٤٠ وطفيل الغنوي ٦٨- ٦٩ ودريد بن الصمة ٤٩ وعامر بن الطفيل ٣٧- ٣٨ و٤٥ و٧٠ وعنترة ٢١٨ و٢٢١ و٢٥٠ وعروة بن الورد ٥٨ وسلامة بن جندل ١٥١ والنابغة الذبياني ٤٣ و٨٥ و١٨٧ والخنساء ١٢٣ وشعر زهير ٢٩٦ وشعر زيد الخيل ١٦٧ و١٨١ وديوان الأعشى ٧٣- ٧٤ والأصمعيات ٦٦ و٨٠- ٨١ والمفضليات ٣٩٧ و٤٠٥ والأنوار ومحاسن الأشعار ١٠٣/١.

openkandil.com

الجاهليين، وهي تجربة لا تكتسب وجودها إلا بالخيل المعلّمة المدربة، والتي حازت صفات لا توجد في غيرها. وإن بدا اختلاف طفيف بين المشاهد لغة وقيماً شعرية موازية للواقع الفكري فإنها اتفقت على إثبات صفة الصبر والقوة والإقدام....وكل ما يحقق صفات الحيوية الفاعلة.

فطول الحرب جعل الخيل تطرح أفلاءها في كل منزل، ولم يبق عليها إلا الجلد بعد أن كانت سمينة وقد غارت عيونها، وانبرت حوافرها لأن الأرض الخشنة أثرت فيها. وهذه الصورة شائعة في الشعر الجاهلي[1] وهي لا تفارق مخيلة زهير حينما يمدح هرم بن سنان، بل صار هو والجواد شكلاً واحداً من الأفعال والصفات[2]:

كفَضْلِ جَوَادِ الخيلِ يَسْبِقُ عَفْوُهُ السِّـ ـرَاعَ وإنْ يَجْهَدْنَ يَجْهَدْ ويَبْعُدِ

فهرم كالخيل العتاق اللواتي تفضل بنات جنسها وهو طبع ركب فيهما ولم يكن دخيلاً عليهما. فالحرب قد طالت على خيل هرم ولكنها ثبتت من مطلع الشمس حتى مغربها، لأنها أبية مثل هرم، وهي تشهد له بالحرص والشدة والقدرة على كسب المعركة، ولا جدل على ذلك من قول زهير[3]:

القائدُ الخَيْلَ مَنكُوباً دَوابِرُها منها الشَّنُونُ ومِنها الزَّاهِقُ الزَّهِمُ[4]

قَدْ عُولِيَتْ فهيَ مَرْفُوعٌ جَواشِنُها عَلى قَوائِمَ عُوجٍ، لَحْمُها زِيَمُ[5]

تَنبِذُ أفلاءَها في كُلِّ مَنْزِلَةٍ تَنْتِخُ أعيُنَهَا العِقبانُ والرَّخَمُ[6]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٦ وطفيل الغنوي ٣٣ ـ٣٤ والأعشى ٥٩ و٦٣ـ٦٥ و١٣٥ وطرفة ١٢٨ والنابغة الذبياني ١٤٥.

٢ - شعر زهير ١٨٩ وانظر مثلاً آخر فيه ٧٥ و١٠٤.

٣ - شعر زهير ١٠٥ـ١٠٧ وانظر فيه أيضاً ٧٢ـ٧٤.

٤ - منكوباً دوابرها: أي نكبت الحجارة مآخر الحوافر. والشَّنُون، من الخيل: بين السمين والمهزول. والزاهق: السمين. والزَّهِمُ: الكثير الشحم.

٥ - عُولِيَت: خلقت مرتفعة طولاً. والجواشن: الصدور. ولحمها زِيَمٌ: متفرق على رؤوس العظام.

٦ - تَنْتِخُ أعينها: تنزعها وتستخرجها.

تَخطُـو عَلَـى رَبِـذاتٍ غَـيرِ فَـائِرةٍ تُحذَى وتُعقَدُ في أرسَاغِها الخَدَمُ[1]

قد أَبْدَأتْ قُطُفَاً في المَشيِ مُنْشَزَةَ الـ أَكْتَافِ تَنكُبُها الحِزَّانَ والأَكَمُ[2]

يَهوِي بها ماجِدٌ سَمْحٌ خَلائِقُهُ حتَّى إذا ما أَناخَ القَومُ فاخْتَزَمُوا[3]

صَدَّت صُدوداً عَنِ الأَشوالِ قَبْلاً تَقَلقَلُ في أَعناقِها الجِدَمُ[4]

ولو ردد المرء النظر في هذا المشهد لأدهشته صورة المكان الذي دارت فيه المعارك التي خاضها هرم بخَيْل حققت له شرف المكانة والمنزلة بين الفرسان...فما ترك المعركة حتى نكبت الحجارة حوافر الخيل، وباتت مهزولة لطول مكوثها في ساحة القتال...وإذا كان الشاعر قد أحس في مزج صفات هرم والخيل؛ إذ انتهى إلى مدح كل منهما فإن هذا المدح، أو لنقل هذا الوصف الصريح يكتنف صفة التجسيد المثير. فهو يذكر أفلاء الإناث، وتعقب الطير لتلك الأخلاء وللمقاتلين الذين سقطوا بحد السيف فالقدرة التعبيرية للمشهد تنبثق من المستويات الدلالية المتعددة على صعيد الوظائف العاطفية والفكرية والاجتماعية ثم الفنية بما تحمله من جماليات أخّاذة في نسيجه اللغوي المتماسك.

ولعل في بقية القصيدة من أبيات ما يوضح جملة من هذه المعطيات[5] في إطار التناغم والانسجام بين الواقع الفني والواقع الطبيعي .

---

١ - الخَدَم: سَيْر غليظ مضفور مثل الحلقة يُشَدُّ في الرُّسغ. والفائرة: المنتشرة.

٢ - أَبْدَأت قُطُفاً: أي سارت في أول ما خرجت، والقُطُف: المقاربة في الخطو ونفض اليدين في السير. والمنشرة: المرتفعة والمشرفة. والحِزَّان: كل ما غلظ من الأرض.

٣ - اختزم القوم: تهيؤوا لأمر ما.

٤ - صَدَّت صدوداً: أي لما أناخوا الإبل عرضوها على الماء فصدَّت. والأشوال: بقايا الماء في القِرَب والأسقية. واشترفت: أي رفعت رؤوسها. والقُبْل: جمع قَبْلاء وهي التي تنظر بمآخر عينيها لعزة نفسها وتقلقل: تضطرب. والجِدَم: قِطَع من جلود كالسياط ويريد أن في أعناقها قلائد من سيور.

٥ - انظر بقية القصيدة في شعر زهير ١٠٧ و ما بعدها.

openkanal.com

ومما يزيد مشهد الخيل في غنى موضوعاته أن تتصدى الخنساء لذكره في معرض رثائها لصخر على قلة ذكر الخيل في رثائها. فهي لم تُعرف وصَّافة ولكنها حين تنبهت على صورها الحزينة كانت مبدعة. فما رأَتْ خيل الأعداء إلا اقشعرَّت لأن هذه الخيل كانت تقشعر من صخر[1]. فصورة الخيل وصورة أخيها صنوان في القدرة والشجاعة، وصورة النساء توأمان في الأحزان. فصخر كان يذود حمام الموت عنهما فلا غرو أن تبكي الخيل وأخته عليه، كقولها[2]:

فَيَا عَيْنِ بِكّي لاِمْرِئٍ طَالَ ذِكْرُهُ لهُ تَبْكي عَيْنُ الرَّاكِضَاتِ السَّوابِحِ

فصخر كان ينقذها من الموت غداة الغارة[3]. وكانت الخيل بادئ ذي بدء قد فرحت بموته فاستراحت من كثرة الخروج إلى الحرب، وركنت إلى حياة الدعة حتى أصيبت بالسُّمْنة، وما كانت هكذا خيل الحرب، فتقول الخنساء[4]:

وقَدْ فَقَدَتْكَ طلقَةُ فاسْتَرَاحَتْ فَلَيْتَ الخَيْلَ فَارِسُهَا يَرَاهَا

فهذا المشهد يوضح ما في نفس الخنساء أولاً وتجاهل قومها ثانياً، ومن هنا اتخذت الخيل وسيلة لتذرهم وتهددهم بإعراض نسائهم حتى يقودوها في حرب طويلة تجعل الخيل ترمي أفلاءها في ساحات المعارك لتنال الثأر من قاتليه فتقول[5]:

لاَ نَوْمَ حَتَّى تَقُودُوا الخَيْلَ عَابِسَةً يَنْبُذْنَ طِرحاً بِمُهْرَاتٍ وَأَمْهَارِ

وحين يحمى الضراب ويشتد وطيس المعركة تندفع الخيل بكل جرأة نحو أعدائها ولاتني تنال من الفرسان ثم تدوسهم بسنابكها تتشفَّى منهم، كقول دريد بن الصمة[6]:

---

١ - انظر ديوان الخنساء ١٨ (صادر).

٢ - ديوان الخنساء ٢٨ (صادر).

٣ - انظر ديوان الخنساء ٧ و١٣ و١٧ و٤١ و٥٢ و٦٥ و٦٩ و١٠٩ و١٣١ (صادر).

٤ - ديوان الخنساء ١٤١ (صادر).

٥ - ديوان الخنساء ٥٩ (صادر).

٦ - دريد بن الصمة ٤٨- ٤٩ والأصمعيات ١٠٨- ١٠٩ ق٢٨ واختلفت الرواية بينهما.

obeikandl.com

فطاعَنْتُ عَنْهُ الخَيْلَ حتَّى تَنَهْنَهَتْ وحتَّى عَلانـي حَالِـكُ اللَّـونِ أَسْـوَدِ[1]

فما رِمْتُ حتَّى خَـرَّقَتْني رِمـاحُهمْ وغُـودِرْتُ أَكْبُـو في القَنَـا المُتَقَـصِّدِ[2]

وكان دريد سمع الفرسان يتنادون أن خيل الأعداء أَرْدَت أحدهم فتساءل:

تنـادَوا فقـالُوا: أَرْدَتِ الخَيْـلُ فارسـاً فقُلْـتُ: أَعَبْـدُ اللهِ ذَلِكُـمُ الـرَّدِي؟

وطالما كان عبد الله يرد الموت عن الخيل وينقذها إذا فسد الأمر، واضطرب دون أن يعرف التراجع أو الخوف، فيرثيه دريد بن الصمة قائلاً[3]:

أَبـا دُفافـةَ مَـنْ للخَيْـلِ إذْ طُـرِدَتْ فاضَطَرَّها الطَّعْنُ في وَعْثٍ وإرْجَافِ[4]

يـا فـارِسَ الخَيْـلِ في الهَيْجَـاءِ إذْ كِلْتَـا اليَـدَيْنِ كُـروراً غَيْـرَ وَقَّـافِ[5]

وبهذا يثبت مشهد الخيل والحرب اقتران صورة المرثي بالخيل، فهو الذي يحميها في الشدة ويذود الموت عنها وعن الفرسان، وكان قادها لتجلب الخير للقوم، وقد افتقدوا ذلك كله حين غاب، كما يوضحه أوس بن حجر لأبي دُلَيْجَة[6]:

أبـا دُلَيْجَـةَ مَـنْ يَكْفـي العَـشِيْرَةَ إذْ أَمْسَوا مِـنَ الأَمْـرِ في لَـبْسٍ وبَلْبَـالِ[7]

أَمْ مَـنْ لِعادِيَـةٍ تُـرْدِي مُلَمْلَمَـةٍ كأَنَّهـا عـارِضٌ مِـنْ هَـضْبِ أَوْعَـالِ[8]

ويبقى مشهد الخيل والحرب ممثلاً لروح الفروسية العربية التي تبرز تفرد الأفراس حين اشتداد البأس وهي تتجه بود إلى فرسانها. وحين يحتدم الصراع

---

١ - حالك اللون: أراد الدم الأحمر المائل إلى السود، وفي البيت إقواء.

٢ - ما رِمْت: ما بَرِحْت. والمُتَقَصِّد: المُتَكَسِّر.

٣ - ديوان دريد بن الصمة ٩٤ والأغاني ١٠/١٠ واختلفت رواية الأبيات بينهما.

٤ - أبو دُفافة: كنية أخيه عبد الله. والوعث: فساد الأمر واختلاطه. والإرجاف: الاضطراب.

٥ - كروراً: أراد أنه لا يعرف التراجع وهو يمسك بيدٍ ويطاعن بالأخرى، ورواية الديوان (كراراً) ولا وجه لها معنىً وهي تخل بالوزن، ورواية الأغاني (دَرُوراً).

٦ - ديوان أوس بن حجر ١٠٤.

٧ - اللَّبْس: الاختلاط. والبَلْبَال: الفوضى والارتباك.

٨ - العادية: الكتيبة. والمُلَمْلَمة: المجموعة.

obeikandi.com

وتتقلص شفاه الأبطال[1]، وكذا تفعل الخيل[2] فإن ثقة الفرسان تزداد بقدرة خيولهم على الرغم من أن الرماح تثير الألم في صدروها، ويشكو الفرسُ بروح من الرفق العظيم ما يلاقيه من طعام، فيبتدر الفارس محاوراً إياه وممنيّاً له بالفوز بعد أن يسأله عن نتائج الفرار وجرائره. وبعين حَرَّى وأذن شغوف تصغي إلى كل كلمة يتحمل ما يقع له يساعده على هذا أصالته التي تشهد له بالصبر والتفرد. وقد يكون المزنوق[3] فرس عامر بن الطفيل[4] من أشهر الأفراس التي آثرت الفوز في السباق، والانتصار في الحرب وإن خُضِّب صَدْرُه بالدم. ولا يوجد أشهر منه إلا الأَدْهَم فرس عنترة بن شداد، ففيه تحققت صفة الإنسان ولا سيما حين تضخّم حِسُّه بذاته وقدرته، فأدرك ما في نفسه من خُيلاء مما حفزه على التطلع إلى التحرر. وكذا ارتفع الإدراك لدى ناقته السوداء إلى مستوى فهم البشر وشعورهم. فالأدهم كان يتجه إلى فارسه مناجياً إياه بحديث يرتفع عن العتاب إلى حديث العقل الموجه لما ينبغي فعله. ويدرك أن المجد العظيم يتأتى بعد الصبر الطويل وإن ازوَرَّتْ القبيلة عنه وأنكرته مذيقة إياه من المهانة ما لم يلاقه أحد من الجاهليين. ويُظهر الحديث عظمة اللقاء في القدرة التي تمثلت عند الأدهم وعنترة وحين لا تنفع أيّاً منهما يؤثران الصمت إلى أن تحين فرصة إثبات الذات. وكيفما قلبت مشاهد الخيل والحرب عند عنترة تتراءى لك هذه المعاني، ولهذا ندر أن عُرف عنترة واصفاً لمشاهد الصيد، وما اقترنت ناقته قط بحيوان وحشي، وإنما هي قرينة له ولفرسه. ويبقى فرسه ملاذاً وحيداً في ساحات المعارك للفرسان كلما ضعفوا وهو يكر على

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٠ وعنترة ٢١٥ و٢٢٦ و٢٥٢ والأصمعيات ٧٩ ق٢١ والمفضليات ٦٧ ق١٢ وانظر سمط اللآلي ١/١٢٥- ١٢٦.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٢٩ و١٨٣ وديوان عنترة ٣٣٨ وابن الأسلت ٨٠ والأنوار ومحاسن الأشعار ١/١٩٢.

٣ - انظر ديوان عامر بن الطفيل ٦١- ٦٥.

٤ - يُعَدّ عامر بن الطفيل من أحذق العرب بركوب الخيل ورياضتها وأقدرهم على التصرف في فنون القتال والسباق.

obeikandl.com

الأعداء[1]. وبذلك ندرك أن مشهد خيل الحرب يرتقي إلى صفة الالتصاق بالمشاعر والحياة عنده، ويدل على ذلك قوله[2]:

تُمْسِي وتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ ... وأَبِيْتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدهمِ مُلْجَمِ

وحَشِيَّتي سَرْجٌ عَلى عَبْلِ الشَّوَى ... نَهْدٍ مَراكِلُهُ نَبيلِ المَحْزَمِ[3]

وأخذ يذكر الناقة وكان وصفها سابقاً بالسواد وشبهها بظليم أسود هو الآخر مثلما كان عرقها كالقطران[4]، ويعود إلى صفة فرسه الأدهم ويصوره في ساحة المعركة كيف يكر ويفر وفي كل مرة يجدل القِرْن الشجاع حتى يقول[5]:

لَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ ... يَتذامرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ[6]

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّماحُ كَأَنَّها ... أَشْطانُ بِئْرٍ في لَبَانِ الأَدْهَمِ[7]

ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ ... ولَبَانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ ... وشَكا إِليَّ بِعَبْرَةٍ وتَحمْحُمِ[8]

لَوْ كانَ يَدْرِي ما المُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ... أَو كانَ يَدْرِي ما جَوابُ تَكَلُّمِي؟

والخَيْلُ تَقْتَحِمُ الخَبارَ عَوابِسا ... ما بَيْنَ شَيْظَمَةٍ وأَجْرَدَ شَيْظَمِ[9]

---

١ - انظر ديوان عنترة ٢٨٢.

٢ - ديوان عنترة ١٩٨.

٣ - الحَشِيَّة: الفراش. والشَّوَى: القوائم. والنَّهْد: الضخم الغليظ. والمراكل: حيث يركل الفرس بعقبيه.

٤ - انظر ديوان عنترة ١٩٣ و٢٠١ و٢٠٤.

٥ - ديوان عنترة ٢١٦.

٦ - يتذامرون: يحث بعضهم بعضاً، وأصل الذمر: الصياح.

٧ - الأشطان: الحبال، شبه الرماح بها في الطول. والأدهم: فرسه.

٨ - ازورّ: أعرض الفرس لما رأى الرماح تقع بنحره. والتحمحم: الصوت الخفي.

٩ - الخبار: مالان من الأرض وكانت فيه حجارة، وذلك من أشد ما يكون على الخيل. والعوابس: الكوالح الوجوه. والشيظمة: الطويلة من الخيل.

obeikandl.com

فصفة الإدراك الواعي تظهر من خلال أبياته الأخيرة مثلما تظهر في مشاهد أخرى من شعره، فخيله تجيب السائل[1] مثلما هي خيل بعض الشعراء[2]. وقد يكون بعض الشعراء نجحوا في جعل الخيل تدعو فرسانها في ساحات المعارك[3]، لكن المشاهد التي تعالج ذلك تبقى دون ما جاء به عنترة. ففرس عنترة مقاتل شجاع قوي الشكيمة، وأصالته ظاهرة في أعضائه جميعها ابتداء من حوافره وانتهاء روحه من أنفه، وحين يمشي يدك الأرض بعنف ويتمايل متبختراً كالنشوان، ومن مشهد الخيل نقتطف هذه الأبيات[4]:

وَلَـرُبَّ مُـشْعَلَةٍ وَزَعـتُ رِعالَهـا ... بمقلِّـصٍ نَهْـدِ المَراكِـلِ هَيْكَـلِ[5]

سَـلِسِ المُعَـذَّرِ لاحِـقٍ أَقْرابُـهُ ... مُتَقَلِّـبٍ عَبَثـاً بفـأسِ المِسْحَلِ[6]

نَهْدِ القَطَـاةِ كأنَّهـا مِـنْ صَخْرَةٍ ... مَلْـساءَ يَغْـشاها المَسِيْلُ بِمَحْفَـلِ[7]

وكَـأنَّ هادِيـهِ إذا اسْـتَقْبَلَتُه ... جِـذْعٌ أَذلُّ وكـانَ غَيْـرَ مُـذَلَّلِ[8]

وكَـأنَّ مَخْـرَجَ رُوحِـهِ في وَجْهِـهِ ... سِـرْبانِ كانـا مَـوْلِجَيْنِ لجَيْـأَلِ[9]

وكَـأنَّ مِـشْيَتَهُ إذا نَهنَهتَـهُ ... بالنِّكْـلِ مِـشْيَةُ شَـارِبٍ مُـسْتَعْجِلِ[10]

ويقود المشهد السابق إلى تنسم رؤية عنترة، لأن مشهد الخيل خاصة ومشهد الحيوان عامة في قصائده يبرز نمطاً من أنماط تفكيره وصورة من حياته

---

١ - انظر ديوان عنترة ٢٠٧ و٢٥٠.

٢ - انظر ديوان عامر بن الطفيل ٣٧ و٤١ والمفضليات ٢٣٤ ق٥١.

٣ - انظر ديوان الخنساء ١٧ والمفضليات ١٦٦ ق٣٢.

٤ - ديوان عنترة ٢٥٩- ٢٦٢.

٥ - المُشْعلة: يعني حرباً شديدة كالنار. ووزعت: كففت. ورعالها: جماعاتها. والمقلص: يعني فرساً مدمَّج الخَلْق. ونَهْد المراكل: وسع الجوف، والنَّهْد: الغليظ، والهيكل: الضخم.

٦ - الأقراب: جمع قُرْب وهو الخصر. والمِسْحَل: الحلقة التي فيها طرف منشار اللجام.

٧ - نهد القطاة: أي غليظ مقعد الردف وجعلها صلبة ملساء كالصخر. والمحفل: حيث يكثر الماء.

٨ - جذع أذل: أي فرسه طويل العنق سابغ الرسغ والناصية.

٩ - السِّرْبان: أراد سَعة منخريه كمدخل جحر الضبع. والمولج: المدخل. والجأل: الضَّبُع.

١٠ - نهنهته: زجرته. والنَّكْل: ضَرْب من اللُّجُم.

الاجتماعية، ومظهراً من تطلعه إلى كسر طوق عبوديته. فلو تابع المرء معاني تلك المشاهد لوجدها مقتصرة على ما يبعث روح الاعتزاز بالذات والتناقض الاجتماعي الذي يعيش فيه ويعاني من آثاره لسواد لونه.

فقد جعل اللون الأسود صفة ثابتة لحيواناته التي ظهرت في معلقته ولكن هذا اللون الذي يذكر بالمهانة والإذلال لم يقف حائلاً بينها وبين ما تحمله من صفات العتق والأصالة. فناقته التي تشبه الظليم الأسود وهذا يشبه عبداً ذا فَرْو طويل[1] ما تفتأ ترفع رأسها خيلاء، واحتمالها الأذى من طول الارتحال يدل على صبرها لا ذُلّها، لأن ثورتها تظهر في حمحمتها، وكأن أصواتها أصوات وَقُود هش أُضرمت النار فيه. وهي ذات خُلُق خاص لأنها لا تشرب إلا من ماءٍ اختارته برغبة منها، ومشيتها تغاير مشية إبل القوم، وعلى الرغم من ذلك كله فهي مطواع لراعيها[2] مثل فرسه المُذَلَّل على غير طبعه.

ولعل هذا وذاك يدل على احتمال الأذية عند عنترة من قِبل قومه وقد آثر الصبر لأنه لا يريد الخروج على نظامهم، ورأى أن الحرية تُنتَزع بقدرة الفعل لا باللون والحَسَب. ومن هنا جعل التفاؤل بالحرية وجهاً من وجوه التعلق بها فأتى بمشهد الذباب[3] بعد مشهد الناقة. ومشهد الذباب يبرز الاستبشار بفرحة الربيع عند الحشرات وكأنه استبشار لعنترة، ولهذا سارع إلى مشهد الخيل، والخيل وسيلته إلى إنفاذ ما يصبو إليه[4]، لأنها تعد صورة للتمرد على قيد الذل، فلا تظهر في المعارك إلا ساهمة الوجه أبية إباء الكرامة، ولا تتراجع خوفاً من الموت[5]، بل إن لونها الأسود يميل إلى الحمرة لكثرة ما عثرت بنجيع القتلى[6]، ولا تبغي إلا الموت في ساحات المجد، فروحها تخرج من أنفها.

---

١ - انظر ديوان عنترة ١٩٩- ٢٠١.

٢ - المصدر السباق ٢٠٢- ٢٠٤.

٣ - المصدر السابق ١٩٦- ١٩٨ وانظر ما يأتي من البحث ٣٦٢ و ما بعدها.

٤ - المصدر السابق ٢٧٠- ٢٧١ و٢٧٤ و٢٧٨ و٢٨٠ و٢٨٣.

٥ - انظر المصدر السابق ٢٣٦ و٢٥٢ و٢٩٧.

٦ - المصدر السابق ٣٠٧.

openkandil.com

ولهذا كله فمشهد الحيوان يجسد ثورته الشعرية المتصلة بثورته في الحياة، وإكرامه لخيله وصيانتها[1] وإيثارها على ذويه ونفسه وَجْه من كمون تلك الثورة. فلا غرو بعد ذلك أن يجعله الأصمعي واحداً من أشعر الفرسان، وقد ذهب بعامة ذكر الحرب[2]. ويؤدي هذا كله إلى أن مشهد الخيل يحمل عظمة التجاوب وروح الاتساق بين الشاعر وفرسه، ولهذا يأسف أحدهما على فراق الآخر لأنهما شكلان لروح واحدة، كقوله[3]:

يَقِيْني بِالجَبِينِ ومَنْكِبَيهِ وأَنْصُرُهُ بِمُطَّرِدِ الكُعُوبِ

وما من شك أن هذا المشهد المجتزأ من المشهد الأصلي ذي الدلائل الكثيرة على الارتباط بحياة عنترة ونفسه لا يختلف عن بقية المشاهد، وما أخَّرَ عنترة لدينا عن طفيل الغنوي إلا لأنه ألح على الجانب الفردي أكثر من الجانب الجماعي، وما ذلك كله إلا لعبوديته، بينما علا صوت طفيل الذاتي والقبلي الجماعي ومهما قيل في هذا الجانب أو ذاك فالفروسية سمة عامة للجاهليين[4] مثلما هو إسناد الفعل البشري إلى الخيل في مشهد الحرب، كقول الكَلْحَبة[5]، ومنه[6]:

تُسائِلُني بَنُو جُشَمَ بن بَكْرٍ أَغَرَّاءُ العَرادَةُ أَمْ بَهِيْمُ؟
هِيَ الفَرَسُ الَّتي كَرَّت عَلَيْهِمْ عَلَيْها الشَّيْخُ كالأَسَدِ الكَلِيمُ

---

١ - المصدر السابق ٣٠٩- ٣١٠.

٢ - انظر فحولة الشعراء ١٤ و١٨.

٣ - ديوان عنترة ٣٢٠ وانظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١١٠.

٤ - من فرسان العرب: طفيل وعنترة وعامر بن الطفيل ودريد بن الصمة وربيعة بن مقروم وزيد الخيل وعمرو بن كلثوم وتأبط شراً والبَرَّاض، انظر محاضرات الأدباء ١٤١/٣ وسمط اللآلي ٦٣٥/٢ و٦٧٢.

٥ - الكلحبة: لقب له ومعناه: صوت النار ولهيبها، وقيل هو لقب لأمه، وهو نادر التلقيب، واسمه هُبيرة بن عبد مَناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك.. أحد فرسان بني تميم وساداتها، عن المفضليات (ص٣١) – الهامش - .

٦ - المفضليات ٣٣ ق ٣ وشرح المفضليات ١٠١/١.

وكقول عامر بن الطفيل الذي أنصف فرسه الكُلَيْب وبرأه من الضعف وأسند الجبن إلى نفسه في قوله[1]:

أَظُنُّ الكُلَيْبَ خانَني أَو ظَلَمْتُهُ ببُرْقَةِ حِلِّيْتٍ وما كانَ خائِنَا

وأَعْذِرُهُ أنِّي خَرُقْتُ وإنَّما لَقِيْتُ أَخا خِبٍّ وصُودِفْتُ بادِنَا

فالخيل مدعاة للفخر والحمد لأنها تؤدي ما يطلب منها على أحسن وجه، وهي تغضب لكرامتها إذا هددها فارسها، فحَمِيَّة المزنوق جعلته يلقي فارسه عامر بن الطفيل حين زجره[2]، هذا إذا عرفنا أن عامراً معجب بخيله، متمدح لها. ومن هنا يقدّر أن البلاء الحسن من الخيل والفشل من الفارس، فإذا هزم فإنّما يتأسّى بالخيل التي تردي بالشجعان وتتابع طريقها مثل الحِدَأ إلى معركة جديدة[3].

ذلك وجه من وجوه إسناد الفعل إلى الخيل، فقد يختلق الفارس الأعذار إذا وقع ما يؤسف له في المعركة، فإن عجز الفرسان عن اللحاق بالأعداء سوّغوا عجزهم بأن خيل الأعداء نجتهم من موت محتم[4]، ومن أمثلة هذا قول أوس بن حجر مدعياً أن قُرْزُل نزا بعيداً بطفيل بن مالك العامري فنجا من تميم[5]:

واللهِ لَوْلا قُرْزُل إذ نَجا لكانَ مَثْوَى خَدِّكَ الأَخْرَمَا

نَجَّاكَ جَيَّاشٌ هَزِيمٌ كما أَحمَيْتَ وَسْطَ الوَبَرِ المِيْسَما

وقد يُقَصِّرُ الفارس فيزعم أن عيباً ظهر في خيله، فظَلَعُ العَرَادة بالكَلْحَبة ــ لأنها كرعت في الحوض عند الغارة ــ سَبَبٌ لنجاة خَصْمه حَزِيْمَة، فيقول الكلحبة[6]:

---

١ - ديوان عامر بن الطفيل ١٣٦.

٢ - ديوان عامر بن الطفيل ٣٢.

٣ - انظر ديوان عامر بن الطفيل ٥٥.

٤ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٦١ وبشر بن أبي خازم ١٤٠ وعامر بن الطفيل ١١٣ وشعر زيد الخيل ١٨١ والمفضليات ٤٩- ٤٠ ق٦ و٤١ ق٧ وانظر وصف الخيل ١٨٣- ١٨٧.

٥ - ديوان أوس بن حجر ١١٣.

٦ - المفضليات ٣١- ٣٢ ق٢ وشرح المفضليات ١/٥٤ و٥٧.

obeikandl.com

ونـادى مُنـادِي الحَـيِّ أَنْ قَـدْ أُتِيـتُمُ وقَـدْ شَـرِبَتْ مـاءَ المَـزَادَةِ أَجْمَعَـا

فـأَدْرَكَ إِبقـاءَ العَـرَادةِ ظَلْعُهـا وقَدْ جَعَلَتْنِي مِنْ حَزِيْمَةَ إِصْبَعَا

وقد يحجم الفارس عن دخول المعركة أصلاً؛ فيدعي أن سبب نكوصه عن إدراك الشرف كان نفور فرسه، كقول قَبِيْصَة[1]:

أَلمْ تَـرَ أَنَّ الـوَرْدَ عَـرَّدَ صَـدْرُهُ وحادَ عن الدَّعْوى وضَوْءِ البَوَارِقِ

وأَخْـرَجَنِي مِـنْ فِتْيَـةٍ لم أُرِدْ لَهُـمْ فِراقـاً وهُـمْ في مَـأْزِقٍ مُتَـضَايِقِ

وعَـضَّ عَلَـى فَـأس اللِّجـامِ وعَزَّنِـي عَلَـى أَمْـرِهِ إِذْ رَدَّ أَهْـلَ الحَقـائِقِ

فَقُلْـتُ لَـهُ لَمَّـا بَلَـوْتُ بَـلاءَهُ وأَنِّـي بِمَتْـعٍ مِـنْ خَلِيـلٍ مُفـارِقِ

أُحَـدِّثُ مَـنْ لاقَيْـتُ يَوْمـاً بَـلاءَهُ وهُـمْ يَحْـسِبُونَ أَنَّـني غَيْـرُ صَـادِقِ

فقبيصة أحب أن يكون واحداً من فرسان قومه، ولكن فرسه الوَرْدَ انحرف عن القصد وركب رأسه فابتُلي من نفرته ما جعله يبعده عن نيل الشرف، ولو ملك رده إلى المعركة لفعل، بيد أن قصته ما كانت لتحسن الظِّنَّة به. ومن هنا فقد نقع على مشاهد تَسْخَر من الخيل الضعيفة[2]، كقول أبي الفضل الكناني[3]:

ومُـسْتَلْحَمٍ يَخْشَى اللَّحاقَ وقَدْ تَلا بِهِ مُبْطِئٌ قَدْ مَنَّهُ الجَرْيُ فَاتِرُ[4]

ضَعِيْفُ القُوى رِخْوُ العِظَامِ كأَنَّها حِبالٌ نَضَتْهُ مُبْطِئاتٌ مَحَامِرُ[5]

فَنَهْنَهْتُ عَنْهُ القَوْمَ حتَّى كأَنَّما حَبَا دُوْنَهُ لَيْثٌ بِخَفَّانَ خَادِرُ[6]

فالعدو رَهَق رجلاً وهو على ظهر فرس ضعيف فشرع يزجره دون فائدة،

---

١ - شرح ديوان الحماسة (المزروقي) ٢/ ٦٢٠.

٢ - انظر مثلاً: حماسة البحتري ٥٢ ونهاية الأرب ٣/ ١٣٩.

٣ - الأصمعيات ٧٧.

٤ - المستلحم: الذي رهقه العدوّ في القتال. وتلا به: تخلف به. والفاتر: الذي لانت مفاصله وضعف.

٥ - نضته: سبقته. ومَحَامر: جمع مِحْمَر، وهو اللئيم الذي يشبه الحمار في جريه.

٦ - نهنهت: زجرت. حبا: اعترض.

obeikandl.com

وكأنه يرى ليثاً يعترضه.

وهذه المشاهد تضعنا مباشرة أمام نتائج المعارك، وما ينتصر القوم إلا على أشلاء بعضهم بعضاً. وما تتوقف الحياة الحربية وإن عقرت الأفراس والفرسان، فالمنهزمون يجمعون شتاتهم ويهيئون خيلهم لعلهم ينتصرون لكرامتهم[1]. ولعل من أبرز مظاهر نهاية المعارك أن الخيل تبقى مرفوعة الرأس وتبدو أوفر نشاطاً وكأنها النار اتقاداً مثلما دخلتها[2]، وتستعد لدخولها من جديد كقول بشر بن أبي خازم[3]:

كَأَنَّ سَرَاتَهُ والخَيْلُ شُعْثٌ غَداةَ وجِيفِها مَسَدٌ مُغَارُ

يَظَلُّ يُعارِضُ الرُّكْبانَ يَهْفُو كَأَنَّ بَياضَ غُرَّتِهِ خِمارُ

ووقف غير ما مشهد عند ذكر الخيل الفتية التي بالت في أرض الأعداء مثلما بالت نساؤهم[4]، ومنهم من بُقرت بطونهن[5]، كما يدعي عامر بن الطفيل بينما أنف العرب من هذا الصَّنيع وذَبَّ الفرسان عن الحريم[6]، فآلت مساعدتهم إلى من لا يستحقونها.

ويبقى مشهد نهاية المعركة غنياً بالمعاني، فما خرجت الخيل إلا مخضبة بالدم[7]، إذ ظهرت مُحجَّلة به، أو امَّحى تحجيلها من آثاره[8]، وتغيَّر لونها[9]. كما

---

١ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٤٩.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٦٣ و١٨٧ وبشر بن أبي خازم ١١ و١٨١ وطفيل الغنوي ٣٥ و ٤٢-٤٣ وعنترة ٢٤٣ ودريد بن الصمة ٥٧ وشعر النمر بن تولب ٣٤١.

٣ - ديوان بشر بن أبي خازم ٧٧.

٤ - انظر ديوان عامر بن الطفيل ١٦ و١٢٩ وانظر ديوان امرئ القيس ٣٦٠.

٥ - انظر المصدر السابق ١١٨.

٦ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٩٢ وعنترة ٢٤٣ و٢٦٤ و٢٩٤ و٣٠٧ و٣٤٠ ودريد بن الصمة ٨٤ وانظر محاضرات الأدباء ١٤٧/٣- ١٤٨ ووصف الخيل ١٨٠- ١٩٥.

٧ - انظر مثلاً ديوان عنترة ٢١٧ و٣٠٧ و٣٣١ وسلامة بن جندل ٩٨ والنابغة الذبياني ٤٣ وشعر عمرو بن معد يكرب ٥٩ ووصف الخيل ١٩٤- ١٩٥.

٨ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ١٧٢ وديوان طفيل الغنوي ٣٤ والأنوار ومحاسن الأشعار ٢٦٠/١.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٣٠٧.

openkandil.com

اشتكت الآلام[1] وضعف حوافرها التي لانت وتثلمت[2]، وصارت مُشَعَّثَة الرؤوس، متغيرة اللون[3]، غير مُحجَّلة لكثرة غبار المعارك[4]، بعد ما يبس العرق[5] عليها فأصبحت كالسعالي[6]. وترى المنتصرين يفتخرون بكثرة الغنائم والسبايا[7] بعد أن امتلأت ساحات القتال بأشلاء القتلى التي أشبعت عوافي الوحش[8]، بينما شرع ذووهم يندبونهم ويبكونهم[9].

وبهذا كله تتجدد المشاهد الفنية للحرب، حتى تستدبرك بأنف العزة والقوة، وقد صارت الخيل مظهر افتخار ومدح ومعقلاً للخير. ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول أوس بن حجر[10]:

صَبَحْنَ بَني عَبْسٍ وَأفناءَ عامِرٍ ... بِصادِقَةٍ جَوْدٍ مِنَ الماءِ وَالدَّمِ

لَحَيْنَهُم لَحْيَ العَصَا فطردْنَهُمْ ... إلى سَنَةٍ جِرْذَانُها لَمْ تَحَلَّمِ[11]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٣٠٤.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٦ و٧٦ و١٨١ وعلقمة الفحل ٨٧ وعامر بن الطفيل ١٢١ ودريد بن الصمة ٥٥ والأعشى ٥٩ و٢٣٥ والنابغة الذبياني ١٤٥.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٤ و١٤٠ و٢١٠ وشعر النابغة الجعدي ٥٠ ومحاضرات الأدباء ١٤٩/٤ و٦٤٣.

٤ - انظر مثلاً: شرح ديوان عنترة ١٩٧ (شلبي).

٥ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٥ والمفضليات ١٥٢ ق٢٨.

٦ - كذلك ظهرت صورة السبايا، انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١٠ والأعشى ٤٩ و٢٣٥ ودريد ١١٢.

٧ - راجع ما تقدم ١١٩ هامش ٧.

٨ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١١١-١١٢ وعامر بن الطفيل ٤٣ و١١٠ ودريد بن الصمة ٥٢ و١٠٢ و١٠٣ و١٠٦ وطرفة بن العبد ٥٨ والنابغة الذبياني ٨٤ وسلامة بن جندل ١٩٥ والأصمعيات ٦٩ ق١٦.

٩ - انظر مثلاً: ديوان عنترة ٢٤٥ و٣٠٢ وعامر بن الطفيل ٩٢ و١٠٠ و١٠٩ و١١٧ وعلقمة الفحل ١٢٦ وسلامة بن جندل ١٩٤ والأعشى ١٦٣ والنابغة الذبياني ٨٤ وعمرو بن كلثوم (كرنكو) ٥٩٩ ومحاضرات الأدباء ١٧٠/٣.

١٠ - ديوان أوس بن حجر ١١٩-١٢٠ وانظر مثلاً: ديوان قيس بن الخطيم ٧٠.

١١ - لَحَيْنهم لَحي العصا: قشرنهم كما يقشر لحاء العصاء. والسَّنَة: أي سنة الجدب. ولم تَحَلَّم: لم تَسْمن.

obeikandl.com

بـأَرْعَنَ مِثْـلَ الطَّـوْدِ غَيْـرِ أُشَـابَةٍ تَنَـــاجَزَ أُولاهُ ولَـــمْ يَتَـــصَرَّمِ[1]

فأَعْقَـبَ خَيْـراً كُـلُّ أَهـوْجَ مِهْـرَجٍ وكُـلُّ مُفَـدَّاةِ العُلاَلَـةِ صِـلْدِمِ[2]

وبذلك كله تنتهي مشاهد الخيل والحرب إلى الإدراك الحقيقي للواقع الذي تعامل معه الشعراء وقد أسقطوا نوازعهم النفسية على الخيل، فانتقلت صورتها إلى مستوى صورة البشر من جهة الفهم والإدراك والشعور. وبهذا تجلت قدرتهم كما تجلت في تشابك صفات الأفراس بالفرسان فلا غرو بعد ذلك أن تقارب الأبيات التي قيلت في الحصان وعددها خمسمئة وعشرة أبيات تلك التي قيلت في البطل وعددُها ستمئة واثنان وعشرون بيتاً[3]. مما يدل على الارتباط العظيم للعربي بالخيل ولا سيما حين يتحدث عن معاركه وفروسيته. ولعل طفيل الغنوي فعنترة فعامر بن الطفيل كانوا في طليعة من أحسن ذلك. وقد ندر ذكر مشهد الصيد في شعر عامر بن الطفيل ودريد بن الصمة وعمرو بن كلثوم، بينما زاوج زهير بن أبي سلمى وعبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم وامرؤ القيس بين مشاهد الخيل والحرب ومشاهد الخيل والصيد. ولمَّا علا صوت الفخر من هذه المشاهد في شعر طرفة بن العبد كان المدح هو المسيطر عليها في شعر النابغة والأعشى. وكان هؤلاء يقفون موقفاً وسطاً بين طفيل وعنترة وعامر ودريد وبين عدي بن زيد وأبي دواد الإيادي الذي يمثل مشاهد الخيل والصيد ويأتي بعده امرؤ القيس الذي حذا حذوه فكان مقلداً له في بعض سماته الفنية ولا سيما أنه لم "يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دواد"[4].

---

١ - أَرْعن: جيش كثير متقدم. والطَّوْد: الجبل. وغير أُشَابة: أي غير أخلاط. وتَنَاجز أُولاه: أي يمضي أوله. ولم يتصرَّم: لم يتقطع من كثرته.

٢ - الأهوج: يعني فرساً يركب رأسه فيمضي. ومِهْرَج: أي فرساً كثير الجري. والعُلاَلة: الجري الذي بعد الجري الأول، ويقال لها إذا طلبت علالتها: ويهاً، فداء لك. والصِلْدم: الشديدة (عن الديوان).

٣ - انظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ٣٥٨ و ما بعدها.

٤ - نخبة عقد الأجياد ١٠١ وانظر سمط اللآلي ٢/٨٧٩ والأغاني ١٥/٣٥٠

obeikandl.com

وأياً كان حجم المشهد الفني الذي تناول وصف خيل الحرب وما ارتبط بها من وظائف ودلالات وغايات فإنه يؤكد نمط التجربة في ارتداداتها العاطفية. فقد حرص الشعراء على إقامة الروابط الفنية التس تستثير الفكر والمشاعر، أي إن المشهد استجابة طبيعية فطرية للقيم الاجتماعية امميزة لكثافة المعنى المحفز لحقيقة الفعل والموقف، وكأنه المعادل الموضوع، وإن لم يكن معبراً تعبيراً مطلقاً عن حرفية الواقع.

فمشهد خيل الحرب يمثل الرؤى الفكرية والجماليات المعبرة عن نظام الكينونة الوجودية وَفْق أنساق حيوية تجعل الفخر مبدأ وغاية أياً كان نوعه فخراً فردياً أم فخراً جماعياً... أي إن مشهد خيل الحرب يعيد إلى الذاكرة فكرة الإفصاح عن العصبية القبلية بلغة تكثيفية رمزية تحفل ظاهرياً بصفة الخيل على حين أنها ترتد باطنياً إلى كل ما هو إنساني. فالشعراء نجحوا في إسقاط ما في ذواتهم على صورة الخيل؛ فانتشلوها من حالة اليأس والعجز والضياع... وقد تجلَّى لنا أن مشهد خيل الحرب لا تتحقق دلالته إلا بوجود الجماعة، وإن كانت كينونته الفنية من صناعة المبدع الشاعر..

ولعل هذا ينقلنا إلى القسم الثاني من مشهد الخيل في القصيدة الجاهلية وهو مشهد الخيل والصيد، وفيه يصور الصراع اليومي لتنازع البقاء أيما تصوير.

obeikandl.com

القسم الثاني

مشهد الخيل والصيد

مشهد الخيل والصيد صورة للمتعة والحيوية والشباب، ووجه من وجوه التعبير عن تنازع البقاء في الحياة. فالمشهد بهذا المفهوم يحمل إطارين اثنين، أولهما عرض فيه الشعراء صفات الخيل فاختاروا منها ما جعل منظر الخيل تزدان في عين كل من قرأ أشعارهم، وكأنها مثال فني جمالي لا نظير له. وحين انتفى منها كل عيب خَلْقي وخُلقي ازدادت متعة الصيد مُتْعة أخرى تتجسد بجمال الخيل وقدرتها. ولم يكن هذا بعيداً عن مفهومهم لخيل الحرب، لأن خيل العرب ما تخرج للصيد إلا إعداداً للغارة على الأرجح، ومثلها خيل السباق.

ولهذا كله فالخيل العربية مظهر زينة ولهو[1] فوق ما هي حصن للعربي في الحياة والشعر، ويوضحه قوله تعالى: "والخَيْلَ والبِغَالَ والحَمِيْرَ لتَركبُوها وزِيْنَةً"[2].

وثانيهما أن مشهد الخيل والصيد يحكي قصة تنازع البقاء بين الأقوى والأضعف في رؤية تركن إلى معارف البادية وتقتطف منها قيمها في المدح والرثاء والفخر والهجاء. ولعل هذا يعني أن مشاهد الصيد في القصيدة الجاهلية لم تكن مقصودة لذاتها، وإنما هي مفاتيح لغايات أبعد، وإن دلت على أن الخيل واحدة من أدوات الصيد أو صورة لتدريب الفرسان. فكل مشهد فني يعد نظاماً لغوياً ذا مستويات عدة في الدلالة والوظائف.

ومن هنا لا بد من توضيح هذه الأمور في المشهد العام للصيد ومشهد الخيل وحيوان الوحش.

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢٣٤- ٢٣٥ وشعر خفاف بن ندبة ٤٥٧- ٤٦٠ وانظر نخبة عقد الأجياد ٢١٩.

٢ - سورة النحل ٨/١٦، وقد تناول الوصف الحسي بالتفصيل الدكتور سلامة الدقس، انظر وصف الخيل ٨٦- ١٤٢.

obeikandi.com

١- المشهد العام للصيد

يعد هذا المشهد واحداً من الدلائل على ممارسة حرفة الصيد، أما بداياتها فهي مجهولة.

فربما تمت وفق قانون المصادفة، لأن الله سخَّر سبل الحياة لمخلوقاته، فالإنسان يقدر على الحيوان، والحيوان الأقوى[١] في الطبيعة يتمكن من الأضعف - غالباً - وكل له من حسن التأتي على تحصيل رزقه ما هيأه الله له.

ولهذا كله استفاد الجاهليون مثل غيرهم من الحيوان، وقد أمدَّه الله بالحرص والحذر لبقاء النوع[٢]. ودل حذق الصيادين على خبرة بطبع الحيوان[٣] فأعدوا حِيَلاً[٤] لا يعرفها كالشراك مثلاً. ومن صوره في الشعر أن الخيل التي تختلف في المعترك وتضرب بأيديها أشبه بقطا وقع في شَرَك فهو يَشِبُّ من نواحيه كقول بشر بن أبي خازم[٥]:

ومُعْتَـــرَكٍ كـــأنَّ الخَيْـــلَ فِيْـــهِ قَطَـا شَـرَكٍ يَـشِبُّ مِـنَ النَّـواحِي

فهذه الطريقة بنت البادية ووليدة الحاجة إلى الطعام، وهي وسيلة فردية[٦]، وإن وُجدت قبائل اهتمت بحرفة الصيد[٧]، ومن أمثلة ذلك قول امرئ القيس[٨]:

---

١ - انظر مثلاً: المفضليات ٢٥٦ ق٦٢.

٢ - قد يوجد الحرص في الحيوان أكثر مما يوجد عند الإنسان، انظر المصايد والمطارد ٤١ و٥٤ و٧٣- ٧٧ ونهاية الأرب ٩/٢٨٠ و١٠/١٠٢ و١٨٧ و١٩١- ١٩٤ والحيوان ٣/١٨٢ و٤/٤٧ و٢٢٩ وحياة الحيوان الكبرى ١/١٠٩ و٢/٥ وصبح الأعشى ٢/٥٩ والمخصص ٨/١٥٠ ومروج الذهب ١/١٦٠.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١ وعبيد بن الأبرص ٦٢ والأعشى ٢٨٥.

٤ - انظر المصايد والمطارد ٤٧ و٢٧٣ والبيان والتبيين ٣/٦٤ وعيون الأخبار ٢/٧١ والمخصص ٦/٢٠ وصبح الأعشى ٢/١٤٥ ونهاية الأرب ٦/٢٨٦ و٩/٢٤٢ و٢٨٠ واللسان (فخخ) و(دبق) و(لبد).

٥ - ديوان بشر بن أبي خازم ٤٦.

٦ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٠٣ و١٢٣ و١٥٤ وأوس بن حجر ٢١ والأعشى ٣٣١ وشعر زهير بن أبي سلمى ١٨٤.

٧ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٧٠ وبشر بن أبي خازم ٥١ و١٠٣ والنابغة الذبياني ٢١٥. والمفضليات ١٩٦ ق٤٠ وانظر وصف الخيل ٨٢.

٨ - ديوان امرئ القيس ١٢٦.

openkandi.com

مُطْعَمٌ للصَّيْدِ لَيْسَ لَهُ غَيْرَهَا كَسْبٌ عَلَى كِبَرِهْ

وبناء عليه قد يظن المتلقي ـ لأول وهلة ـ أن المشهد ـ صغُر أم كبر ـ يتجه إلى الطريدة والأدوات دون الخيل، والعكس صحيح، فالبؤرة الشعرية ـ في أي مشهد كان ، ومهما تعددت جزيئاته في المشبه به ـ تكمن في المشبه (الخيل) في الحضور والغياب، وفي موقف الشاعر من الإحساس الدقيق بقيمة الخيل داخل مجريات الصيد وزمانه ومكانه، دون أن ينسى لحظة واحدة أنه يقدم لوحة جمالية تمزج بين الإنسان والطبيعة... وهذا لا يعني أن الخيل دخلت في كل مشاهد الصيد....

وعند كل الجاهليين وربما علا كعب الهذليين[1] والصعاليك في الحديث عن فكرة الصيد الفردي واعتماد الأقدام فيها من دون الخيل، بوصفهم فقراء لا يملكونها.

وأياً كانت طرائق الصيد في مشهد الخيل فإنها تمثل فكرة الصراع القائمة في الأذهان، على حين نرى أن كثيراً من مشاهد الصيد قد حملت وجهاً من وجوه المتعة عند بعض الشعراء كامرئ القيس، كما ظلت صورة لإعداد الخيل على الغارة عند كثير من الجاهليين.

ولم يقتصر الأمر على ذلك فهناك شبه بين الخيل والكلاب[2] في الصنعة... فالتضرية زادت سرعة الكلاب في طلب الطرائد، وفي هذه المزية تشبهها الخيل كقول عبيد بن الأبرص[3]:

مِسْرِعاتٍ كَأَنَّهُنَّ ضِرَاءٌ سَمِعَتْ صَوْتَ هَاتِفٍ كَلَّابِ

فمشهد الخيل والكلاب يرتفع بصفاتها إلى مرتبة عالية من الكمال في القوة والنشاط، فهي قادرة على الكر والفر والانعطاف في وقت واحد، ونفوسها مشحوذة بالأناة والتحمل، وغير ذلك من الصفات التي يتصف بها البشر. وقد يأتي المشهد على ذكر الكلاب من دون الخيل ليدل غالباً على الفقراء الذين يحرصون

---

١ - انظر مثلاً: ديوان الهذليين ٥٢/٢ و٦٣ و١١٠ و١٣٣ وديوان تأبط شراً ١٦٣.

٢ - انظر مثلاً: ديوان طفيل الغنوي ٢٤ وبشر بن أبي خازم ٥- ٦ وعامر بن الطفيل ٤٠ والخنساء ١٦.

٣ - انظر ديوان عبيد بن الأبرص ٢٣ و(صادر) ٤٣.

obeikandl.com

على كسب صيدهم وعدم فوته[1]. وهنا تزداد مهمة الكلاب صعوبة لأن العبء الأعظم سيقع عليها. وفي هذا المكان من القصيدة يتسع الاستطراد ليفجر طاقات اللغة في إبراز المعاني الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ومن ثم الفنية بوساطة الرمز الدال على ذلك كله... وحين اقتضى هذا الاستطراد رسم لوحة فنية بعيدة الأغوار في الطبيعة والحياة والفن فإنه ظل متماسكاً بالفكرة الأم المستمدة من الاشتغال بفكرة الصيد وعلاقتها بمشهد الخيل... وهذا ما يعرف بفكرة الانزياح اللغوي والدلالي في اللغة الشعرية، لأنه لا يطلب من الشاعر أن يكون شعره مطابقاً للواقع وإن انتفع بمعطياته. فإذا كانت قراءتنا نافذة للعقل على مضمون كل مشهد، فإن بنية النص اللغوية وقيمتها السيميائية تشي بدلالتها ونظامها الفكري. ومن ثم فاللغة السياقية هي التي تقدم الوظائف التي تشتمل عليها.

وأياً كانت المشاهد فمهنة الصيد تبدو فيها مرسومة لأهداف ما[2]؛ منها إبراز صفات الخيل وتدريبها على القتال، علماً أن العرب لم يكونوا سواء في نظرتهم إلى هذه الحرفة، لأن بعضهم يتذكر فيها العَوَز، وتبعده عن السيادة والشرف[3]. ولعل أبرز من يظهر هذه المسألة عمرو بن معد يكرب في قوله[4]:

لا تحسَبُنَّ بني كُحَيْلَةَ حَرْبَنا ... سَوْقَ الحَمِيْرِ بجَأبةٍ فالكَوْكبِ[5]

حُيُدٌ عَنِ المَعْرُوفِ سَعْيُ أَبِيهِمُ ... طَلَبُ الوُعُولِ بوفْضَةٍ وبأَكْلُبِ[6]

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٠١ و١٠٣ وبشر بن أبي خازم ٨٤ والأعشى ١٠٩ و٣٩٩ والنابغة الذبياني ٢٠٣ والمزرد ٤٨ وشعر ربيعة بن مقروم ٢٨٠- ٢٨١ والمفضليات ١٩٦ والمعمرون والوصايا ٧٧.

٢ - انظر أنساب الخيل (لابن الكلبي) ١٣- ١٤ وسمط اللآلي ٢/٩٥٦- ٩٥٧.

٣ - انظر الحيوان ٢/٣٠٩.

٤ - شعر عمرو بن معد يكرب ٤٩.

٥ - جأبة والكوكب: موضعان، انظر معجم البلدان (جاب) و(كوكب).

٦ - حُيُد: جمع حَيُود: مبالغة حائد، وهو المائل عن الشيء. والوَفْضة: جُعبة السِّهَام إذا كانت من أَدَم.

openkanar.com

وهناك وجه آخر يُكشف عنه في مشهد الخيل والصيد، وهو اللذة والمتعة التي يلذها الجاهليون بعادات الصيد المعروفة[1]. وللصيد "لذة مشتركة موجودة في طباع الأمم، وكأنها في سكان البدو والأطراف أقوى لمصاقبتهم الوحش، ومنازلتهم إياها، فلا تزال لها ذاكرين، وبها متمثلين ومنها طاعمين"[2]. فلحم الصيد أطيب الطعام وأكرمه[3]، ولعل مما يقوي هذا الفهم أن عنترة يطلب الطعام الشريف على فرسه فيقول[4]:

ولقَدْ أَبِيْتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيْمَ المَأْكَلِ

فهذا المشهد جزء صغير من مشهد الخيل عند عنترة وهو يركز في لغة انزياحية على صفاته في العفة والشهامة والبطولة، ما جعله يوظف هذه الأبعاد لأغراض ذاتية ميزته من غيره في الحصول على الطعام الشريف.

والعرب أكلوا ما استطابوه[5]، ونفروا من كل ما يُستَقذر. ولهذا ابتعدوا عن أكل لحم الخنزير لأنه يتغذى بالعذرة[6]، كما ابتعدوا عن لحم كل ذي ناب من الوحش والطير[7]. وكل من يتأمل مشهد (الخيل والصيد) عليه أن يدرك الوظائف الخارجية وأهدافها في الواقع الذاتي والاجتماعي على السواء.

وهذا ما يؤكد انفتاح القراءة على القيم المرجعية التي سادت في العصر الجاهلي، في الوقت الذي تثبت هذه القراءة أن المشهد لم يكن في جمالياته ودلالته مشهداً منغلقاً على ذاته؛ إذ كان يرسي جملة من القيم الخلقية والإنسانية أياً كانت مستوياتها في معرض المدح والفخر أم في معرض الذم والهجاء...

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٣٥ وشعر زهير ٢٤٠- ٢٤١ وديوان الأعشى ١٥٧ والمفضليات ٢٨٠ وانظر المصايد والمطارد ٩- ١٠ والحيوان في الشعر الجاهلي ١٨٥- ١٨٧.

٢ - البيزرة ٣١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٥٧ وشعر النابغة الجعدي ٢٤٥ وانظر المصايد والمطارد ١٠.

٤ - ديوان عنترة بن شداد ٢٤٩.

٥ - انظر صحيح البخاري ٣١/٩ وصحيح مسلم ٩٥/١٣ و ما بعدها.

٦ - انظر تأويل مختلف الحديث ١٨٥ وانظر ما يأتي ٣٢٨.

٧ - انظر سورة النساء ١٠١/٤ والأنعام ١٧٥/٦ وصحيح مسلم ٨٢/١٣ و ما بعدها.

obeikandl.com

وبهذا كله تأكد لنا أن المتعة كامنة في نتيجة حرفة الصيد وفي أداة الصيد نفسها. فالجاهلي يفاخر بركوب فرس ذي لون صاف، طويل الجسم، مشدود الأعضاء، واسع اللبان، فزع الفؤاد، لا نظير له في عِقْده لكرمه وعتقه[1].

ومن هنا ينتهي مشهد الصيد إلى عرض صفات الخيل وكأن الشعراء ينحتون تمثالاً بديعاً لأجمل الخيل وأفضلها، فلا غرو بعد هذا أن يعمد أحدهم إلى أعرافها فيمش يديه بها بعد كل شواء وكأنها صارت كالمناديل، وما ذلك إلى إشعار منهم بإحسانها[2].

ولعل هذا يوحي بكيفية طرائق الصيد، لأنها لم تكن واحدة، ولو كانت في الخيل ذاتها. فقد يربطون بأذناب الخيل حبلاً ويُرمَى على الطريدة. وهذه الطريقة عُرفت باسم الصيد بالأوْهَاق[3]، ولم تكن وحيدة، فهناك طرائق غيرها[4].

أما موعد الصيد ولباسه فالأشهر فيه أن الجاهليين خرجوا مبكرين على ظهور الخيل[5]، ولبسوا ما يتماثل ولون الطبيعة فأشبهوا الذئاب الغُبْس والنُمور[6]، وكذا وصفوا كلاب الصيد. ومن أمثلة ذلك قول أبي دواد الإيادي[7]:

وقَدْ أَغْتَدِي في بَيَاضِ الصَّبَاحِ وأَعْجازُ لَيْلٍ مُوَلِّي الذَّنَبْ[8]

---

١ - انظر ديوان امرئ القيس ١٦٣-١٦٥ وأوس بن حجر ٩٣ والأصمعيات ٣٩-٤٢ ق٩ والمفضليات ١٠٦ ق١٩ و٢٤٢-٢٤٣ ق٥٥.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٥٤ وعلقمة الفحل ٩٧.

٣ - انظر المصايد والمطارد ١٧٩.

٤ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٦ وأشعار الهذليين ١/ ٢٩١ و٤٤٠، وانظر المصايد والمطارد ٤٦-٥٤ و١٠٥ و١٧٨-٢١٢ و٢٤٧ و٢٧٣ و٢٩٧ والبيزرة ١٣٨ وصبح الأعشى ٢/ ٥٩ و١٤٥.

٥ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٢٨٧ و٢٩١ و٢٩٩ و٣٥٢ وديوان امرئ القيس ١٩ و٣٦ و٤٦ و٧٥ و١٦٠ و١٧٢ وعبيد بن الأبرص ٤٧ والمفضليات ٢٨٠ ق٧٣.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٢١ و١٧٥ و١٨١ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٥٤، وراجع ما يأتي ٣٠٩-٣١٨.

٧ - شعر أبي دواد ٢٩١ وهي في ديوان حميد بن ثور ٤٢ و ما بعدها.

٨ - أعجاز ليل: أواخره، والرواية في ديوان حميد "وأعجاز ليلي مُوَلّى.."

openkandil.com

ولعل فيما تقدم بياناً لهدف إيجاد مشهد الخيل والصيد في القصيدة الجاهلية، سواء انفردت الخيل عن الكلاب أم ذكرتا معاً. والهدف مرسوم منذ بداية القصيدة، والمشهد واحد من ضُروب البراهين والتأثير والتخييل المستند إلى الإستعارة والكناية والتشبيه...حتى نرى المشبه والمشبه به يتقاربان في أشياء ويتباينان في أشياء، ومهما كانت صفات التقارب والتباين فالمشهد لا يخرج عن سياق وحدة القصيدة النفسية والمعنوية، بل يجسد مفهوم وحدة الحياة بكل تجلياتها. فالمشهد يمثل الواقع المرجعي الدائب الحركة، وهو يرسم الطبيعة الحية والصامتة رسماً يشي بخلق عالم فني جمالي مثير؛ يستند إلى تعانق الخاص والعام لإظهار رحالة التآلف ووحدة الطبيعة... ولهذا ندر ذكر حيوان الوحش دون أن يعرض المشهد للخيل أو الكلاب، كما أن تلاحق أحداث معركة الصيد ليست ذا وجه واحد لأن الصراع في الحياة ليس على نمط واحد عند الشعراء وإن تشابهت كثير من مظاهره. فقد تلاحق الكلاب الطرائد إلى موارد الماء ليبدأ الصياد عمله، وقد تعود الكلاب إلى الملاحقة إذا أخفق[1]. بينما كان مشهد الصيد وحيوان الوحش عند امرئ القيس مغايراً في كثير منه لما تقدم، فهو يُنجي طرائده حيناً وكأنما يعطف عليها، بينما يقتلها حيناً آخر إظهاراً لفكرة تنازع البقاء كما يفعل الهذليون.

فكيف يبدو ذلك عبر المشاهد في حيوان الوحش؟

٢- مشهد الخيل وحيوان الوحش

يتربع هذا المشهد على رأس مشاهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، وحين تظهر الكلاب فيه إلى جانب الخيل يتخذ لنفسه ملامح أخرى وهو مشهد يتسع حجماً ودلالة في القصيدة، حتى تعجز الصفحات عن الإحاطة به، ما يدعو الباحث إلى مبدأ الاختيار وفق الهدف الموضوع له. ولعل النظرة الأولى توضح أن الغرض من ذلك زيادة الهلع في نفوس الحيوانات لتزداد سرعتها، وهنا يلجأ الشعراء إلى عرض المشبه الذي يظهر أفانين من السير، وقدرة على السرعة لا يماثلها إلا سرعة ذلك

---

١ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٣١١.

obeikandl.com

الحيوان (المشبه به). وإذا نظر المرء نظرة ثانية إلى مشاهد الخيل وحيوان الوحش أيقن أن هناك وجوهاً أخرى تتضمنها معارك الصيد. فالشعراء يلجؤون إلى تصوير معركة تحدث بين عقاب كاسر وحيوان ما، أو تصوير صقر منقض على حيوان ضعيف من الطير أو غيره، وفي الحالتين قد تجد المشبه به إما الطارد وإما الطريد، بينما يكون المشبه به في النَّعام له شأن آخر، فالحنين هو الذي دفعه إلى أُدْحِيِّه.

وقد تكون صفة السرعة ظاهرة على غيرها من المعطيات ولكن أحداث المعارك تخبر بأشياء لا تتوقف عند تلك السمة. ويبرز هذا بشكل واضح في مشهد الحمر الوحشية والبقر الوحشي أكثر مما يتضح في بقية المشاهد. فالخيل تدمى صدورها، والكلاب تنشب أظفارها في نسا الحيوان وتعلق أنيابها في عراقيبه، وحيوان الوحش يصر على المواجهة إن لم يهرب بذمائة حتى يخر صريعاً بعد أن أدى حق القتال. وليس هذا إلا الوجه القائم في الحياة من أجل التمسك بها. وإذا كان ذلك غريزة في الحيوان فهو تَطَلُّع عند الجاهلي "ومهما يملك من قوة فإنه لا يملك القدرة على مقاومة الدهر، ومن ثم فإن الجاهلي ولا سيما الشاعر أدرك أن حياته وحياة الآخرين مقضية، وربما عرف أن حياة أخرى يمكن أن ينتقل إليها"[1]. ولهذا ساق مشهد الخيل وحيوان الوحش على وجه يفسر ما آمن به، وقد برز هذا في شعر الجاهليين عامة والهذليين خاصة، وهؤلاء أصروا على قتل حيوان الوحش في مراثيهم كلها حتى صار لهم مذهباً. أما الجاهليون فإنهم عمدوا إلى تنويع مشاهدهم لأن الحياة ليست ذات وجه حزين مطلق وإنما تحمل روح الأمل والتفاؤل، ولهذا جعل أكثرهم حيوان الوحش ينجو وفق نزعتهم القائمة على انتصار الحياة. ولعل في اختيار الصفات الحسنة من الحيوانات وإسقاطها على الخيل ما يقوي تطلعاتهم، حين جعلوا الطبيعة ملاذاً لهم، وصوروها على أحسن ما يتطلعون إليه.

وما من قارئ لهذا المشهد أو غيره من مشاهد الحيوان خاصة والنص الجاهلي عامة إلا أدرك أن القراءة النقدية تتحقق بدرجات متباينة تبعاً للقارئ عاطفة وثقافة ودراية وتذوقاً..مما يجعلها تكتسب صفة الكمال أو النقص أو الدقة أو

---

١ - رأي لأستاذنا العلامة المرحوم أحمد راتب النفاخ نثره إلينا يوم ١٩٨٦/١/٥م.

obeikandi.com

التشويه...شرط ألا يقع في مطب القراءة التاريخية الخالصة، على أهمية هذه القراءة في تأصيل الأفكار التاريخية...أي على القارئ أن يعتمد مبدأ القراءة التأويلية التي تتنوع وتتعدد ذاتياً ومعرفياً ونقدياً.... وهذه القراءة هي القادرة على بيان القيم المتجددة للنّص، وهي القيم المنبثقة من لغته وتراكيبه وصوره، أياً كانت الرؤية الفكرية التي يبتغيها القارئ.[1]

ومن هنا يقودنا الحديث إلى بيان ذلك في مشهد الحمر الوحشية فالبقر الوحشي فالطير.

١- مشهد الخيل والحمر الوحشية

يبقى مشهد الخيل والحمر الوحشية قليل الورود في القصيدة الجاهلية قياساً إلى مشاهد الخيل والبقر الوحشي على الرغم من بعض التشابه معها في السياق الفني وإن لم يكن الشعراء سواء في ذلك. فقد يأتي المشهد في معرض الثناء على الذات أو على شخص ما[2]، وقد يشاكل الفرس في لهوه وعبثه ونشاطه صورة الفارس نفسه[3]. وربما يعرض المشهد صورة الطراد القاسي بين الجواد والحمر الوحشية لعَقْد المماثلة بينهما، وإبراز جملة من الصفات كالقدرة والسرعة والنشاط، وقد يفصّل في ذلك أو يقتضب. وفي هذه الحالة وتلك يبدو الحمار الوحشي تام الخَلْق، شديد المِرَّة، صعب المراس، سريع الجري، غضوباً إذا ما تعرض لمأزق ما، ولكنه يظل ذكياً حذراً وقوياً، فيُخرج ما عنده من ذلك جاعلاً إياه وسيلته إلى النجاة، وهنا تظهر صورة الجواد على أنه أقدر منه إن لم يكن مثله. وما يفتخر الشاعر بجواده إلا ليمتدح نفسه أو من يتوجه إليه بالخطاب، وكأنما الصفات بين الفرس والشخص المذكور واحدة.

---

١ - انظر المسبار في النقد الأدبي ١٧- ٥٦

٢ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٧٥ وعامر بن الطفيل ٤٠ وشعر عمرو بن معد يكرب ١٣٠- ١٣١ والنابغة الجعدي ٨٧- ٩١.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٨٦- ٨٧ و١٦٠ و١٦٣- ١٦٥.

obeikandl.com

وبهذا كله يمثل مشهد الخيل والحمر الوحشية روعة التأثير بما يمتلئ من الخيال والإبداع، والتفصيل في مواطن الإمتاع، ويمثل جزءاً من الحياة العامرة، وينفذ بأفانين التعبير إلى شيء من تاريخ الجاهليين، فوق ما للصور البديعة من قدرة على تفسير موقف الشعراء من الحياة والتنازع الذي يجري فيها. ومن هنا نلمح أن المشهد قد يخلو من ذكر الكلاب، وكأنما قُصِد إلى ذلك لتفر الحمر، فتظهر صفة الخيل، وقد يكون نمطاً فنياً للانتقال إلى مشاهد أخرى لحيوان الوحش إمعاناً في إبراز صورة الخيل حتى تصبح قيداً للهاديات[1].

ولعل هذا يقوي استبداد صورة الخيل بنفوسهم، ولا سيما أنهم أطالوا ذكر صفاتها وقد تداخلت فيها صفات الطبيعة الحية والساكنة كما يوضحه مشهد الخيل وحيوان الوحش.

فالشعراء بالغوا في إظهار صفة القدرة والسرعة للخيل، وصوّروا اندفاعها بين الرياض كالشؤبوب المتجه من السماء إلى الأرض أو غير ذلك. ويركز مشهد الخيل والحمر الوحشية فنياً في النواحي النفسية، فتظهر الخيل وجهاً من وجوه الفروسية[2] ومظهراً للعزة في السلم والحرب. ومتى يتوقف المرء عند مشهد الحمر الوحشية[3] في صفة الخيل فإنه يجد أن الشعراء آثروا الحديث عن هذه الحمر حديثاً نفسياً وكأنهم يتحدثون عن بَشَر. فهي تنطلق على أشد ما يكون الانطلاق متجهة نحو الماء لتروي عطشها بعد أن أنذرها بالموت، وقد تظهر النزعة الإنسانية في نفوس الحمر المذعورة من ملاحقة فرس لها. وهذا كله يعزز أن المشهد هو الذي يقوم بعملية الاتصال والانفصال بين القارئ والمبدع، وبين عصر المتلقي وعصر الشاعر الأول، وينقل جملة من الدلائل والإشارات المباشرة وغير المباشرة، ما يعني أنه لا

---

١ - ذلك ما ينطبق عليه مبدأ الإيغال في المقارنات ومبدأ الاستطراد، حين يسعى الشعراء إلى تداخل الأنواع الفنية الأدبية.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٦٠ وسلامة بن جندل ٩٠- ٩٦ والحطيئة ٢٣١ وشعر عمرو بن معد يكرب ١٣٠- ١٣١ والنابغة الجعدي ٨٧- ٩١ وانظر وصف الخيل ١٩٩ و٢٣٤.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٠٠ و١١٠- ١١١ وعدي بن زيد ١٥٢- ١٥٣.

openkanal.com

يجوز لنا أن نتناول البنية اللغوية السياقية بمعزل عن الوسط الذي تدل عليه.

وذلك كله يقود إلى أن مشهد الخيل والحمر الوحشية صورة مقتطفة من الحياة. ولعل صفة السرعة تمثل جانباً من مفهوم رؤية الجاهليين للزمن دون أن يهمل الشبه فيها بين الخيل والحمر الوحشية.

ومن أمثلة ذلك مشهد الحمر الوحشية في شعر عدي بن زيد، فهو يعرض لحمار وحشي يظلع في مشيته، وقد أثار صُرَّادُ العَشِيّ الهلع في نفسه. فهناك ست من الأُتُن الجميلات الضامرات يطيف بها، ويشعرنه بأنهن يعانين من عطش لاهب. ولهذا شرع ذلك الحمار يجمعها ويسوقها وهن مطيعات له ولكن فرس عدي بن زيد لم يترك لها الاطمئنان ففاجأها على تلك الحال فنفرت تجري وتنزح في جريها. وهيهات أن يكون لها النجاة فالفرس يجري خلف كل واحدة من الحمر يحاذيها فما يفلت منها لأنه قادر على مجاراتها دفعة واحدة، ولهذا جعلها وراءه، ولكن الحياة عند عدي تنتصر على قَهْر الزمان. ومن هنا أدار مشهد الصيد لتكون الحمر مثاراً للتشبيه[1] مع الخيل من جهة وممثلة لتلك المعاني من جهة أخرى، والخوف الذي يساور الحمر لزيادة سرعتها، ولإثارة غضبتها حتى تحرص على النجاة، وهذا ما كان في قوله[2]:

فصادَفَنا في الصُّبْحِ عِلْجٌ مُصَرَّدٌ ... إذا ما غَدا يَخالُهُ الغِرُّ صَادِعَا[3]

يُطيفُ بسِتٍّ كالقِسِيِّ قَوارِبٍ ... فأَيْأَسَ إِذْ أَدْبَرْنَ مَنْ كانَ طامِعَا

أَحالَ عليهِ بالقَناةِ غُلامُنا ... فأَذْرِعْ بهِ لِخَلَّةِ الشَّاةِ راقِعَا[4]

ويؤكد عدي هذه المعاني في مشهد آخر وقد تعالى الغبار وراء الفرس والحمر فيقول[5]:

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٥٤.

٢ - ديوان عدي بن زيد ١٤٢ وانظر شعراء النصرانية ٤/٤٧٢.

٣ - الغِرُّ: الذي لا خبرة له. والصادع: المشرق. والعِلْج: الحمار الغليظ.

٤ - بست: أي بست من الأتن. والقِسِيّ: جمع قَوْس.

٥ - ديوان عدي بن زيد ١٤٤.

obeikandl.com

متَى يَهْبِطا سُهْباً فلَيْسَ حمارُهُ وإِنْ كانَ عِلْجاً مُضْمرَ الكَشْحِ طَالِعَا[1]

تـردَّيْنَ ثَوْبـاً واسْـتَغاثَ بمُغْـوِلٍ يُـضِيْفُ ويُعْطِـي الغَـرْبَ غَرْبـاً مُنازِعـا[2]

فلمَّـا اسْـتَدَارَ واسْـتَدَرْنَ بِرَيِّـقٍ يُحِلْـنَ بـهِ دُوْنَ الغُبَـارِ شـوافِعَا

وهـذا المشهد يـؤدي إلى أن الحـديث عـن الخيـل والحمـر لـيس واحـداً في النهج الفـني عنـد الـشعراء، إذ كـان بعـضهم يكتفـي ببيت[3] واحـد لإظهـار قـدرة الخيـل وسرعتها، فهي تقيد الحيوان دون عناء، بينما يغري المشبه (الخيل) شعراء آخرين فيتوقفـون عنـده أكثـر ممـا يفعلـون بالمـشبه بـه، ومـن أمثلـة هـذا قـول سَلَمة بـن الخُرْشُب[4]:

كُمَيْـتٌ غَيْـرُ مُحْلِفَـةٍ ولكِـنْ كَلَـونِ الـصَّرْفِ عُـلَّ بـهِ الأَدِيْـمُ[5]

تَعـادى مِـنْ قَوائِمِهـا ثَـلاثٌ بتَحجِيـلٍ وقائِمَـةٌ بهَـيْمُ

كـأنَّ مَـسِيْحَتَيْ وَرِقٍ عَلَيْهـا نَمَـتْ قُرْطَيْهِمـا أُذُنٌ خَـذِيمُ[6]

وتُمْكِنُنَـا إذا نَحْـنُ اقْتَنَـصْنَا مِـنَ الـشَّحَّاجِ أَسْـعَلَهُ الجَمِـيْمُ[7]

ولعل دقة الفن في مشهد الخيل والحمر الوحشية تنهض شاهداً على أن زهير بن أبي سلمى ملك قوة النفاذ إلى الصَّنْعة الكاملة وبيان الرؤية الفكرية التي تبرز

---

١ - السُّهْب: المنصوب من الأرض.

٢ - المُغْول: الفَرَس.

٣ - انظر مثلاً: ديوان علقمة الفحل ١٢٩ وسلامة بن جندل ٩٠- ٩٦ وشعر النِّمر بن تولب ٣٨٢ والوحشيات ٨٧ ق ١٣٢ وانظر المعاني الكبير ١/ ٢٥.

٤ - المفضليات ٤٠ ق ٦ والبيت الأول والثاني متداخلان في قصيدة للكلحبة، انظر المفضليات ٣٣ ق٣.

٥ - غير مُحْلِفة: أي خالصة اللون، فهو لا يحلف عليها أنها ليست كذلك. والصِّرْف: الصِّبْغ الأحمر (المفضليات).

٦ - المَسِيْحة: الصفيحة. والوَرِق: الفضة. والخَذِيم: المثقوبة.

٧ - الشَّحَّاج: الحمار الوحشية الذي يشحج بصوته فلا يفصح به. وأسعله: صَيّرهُ كالسِّعْلاة، وهي الغول. والجَمِيْم: ما جَمَّ من النبت وكثر.

openkanal.com

صورة ممدوحه حِصْن بن حُذَيْفَة وتعد تجربة زهير الفنية في هذا المشهد معبرة عن تجليات المتعة الجمالية والفكرية والاجتماعية..وهي تجليات أكدت القدرة الفنية للتعبير عن روح الجماعة التي تواضعت على جملة من المفاهيم والعلاقات الاجتماعية..ومن ثم جاء المشهد متماسكاً في إطار وحدة فنية مدهشة، وهو ما يفرض علينا أن نقف عنده ممثلاً لعدد من النصوص الأخرى. فالمشهد لدى زهير يكاد يكون فريداً في بابه وإن لم يأت بأوصاف تخالف وما وقف عنده الشعراء عامة. فزهير جمع هذه الصفة إلى تلك فكان مجموع ما أتى به جديداً بل متميزاً في إبداعه، إذ أظهر براعة نادرة فذة على تركيب صورة الخيل وصفاتها على الرغم من أنه ما عُرف وصَّافاً لها[1].

فكل صورة منتقاة في جزئياتها من إحدى صور الخيل عند الشعراء قبله. ومن هنا ألَفَّتِ صورة الخيل عند زهير كياناً بديعاً وفريداً لا يشبهها إلا تفرد ممدوحه فيقول[2]:

تَمِيمٍ فَلَوْنَاهُ فأُكمِلَ صُنْعُهُ فَتَمَّ وعَزَّتْهُ يَدَاهُ وكَاهِلُهْ[3]

أَمِيْنٍ شَظَاهُ، لم يُخَرَّقْ صِفاقُهُ بِمِنْقَبَةٍ، ولمْ تُقَطَّعْ أَبَاجِلُهْ[4]

ويدخل الفرس مشهد الصيد الذي يقف فيه الشاعر عند تبادل الرأي بين الفارس الصياد وبقية رفاقه حتى يتوصلوا إلى رأي سديد:

فبَيْنَا نُبَغِّي الصَّيْدَ جَاءَ غُلامُنَا يَدِبُّ، ويُخْفِي شَخْصَهُ، ويُضَائِلُهْ

فقَالَ: شِيَاهٌ رَاتِعَاتٌ بقَفْرَةٍ بمُسْتَأسِدِ القُرْيَانِ حُوٍّ مَسَائِلُهْ[5]

---

١ - انظر فحولة الشعراء (١٠) فلم يسلكه الأصمعي بين من يجيد وصف الخيل، ولا بين الفحول.

٢ - شعر زهير بن أبي سلمى ٤٨- ٦٠ وتوقف الدكتور النويهي طويلاً عند هذه القصيدة في كتابه، الشعر الجاهلي ٥٦٨/٢- ٦٤٨ وقبله الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء ١٠٣/١ و ما بعدها.

٣ - تميم: أي تام الخَلْق كاملة. وفلوناه: فطمناه.

٤ - الأمين: القوي. الشَّظى: عُظَيم لاصق بالذراع. والصِّفاق: الجلدة السُّفلى من بطنه. والمِنْقبة: حديدة البَيْطار. والأبَاجل: عروق اليد.

٥ - المستأسد: ما طال من النَّبت وقوي. والقُرْيان: مجاري الماء إلى الرياض. والحُوُّ: ذات النّبات

obeikandl.com

ويبلغ مجلس الشورى غايته حين ينتصر الرأي الحكيم فيعتمد القوم هذا الفرس، لأنه جمع العِتْق والأصالة والقدرة. ولا شيء أدل على هذا من أن المعركة انتهت لصالحه فخرج منها جذلان يتهادى أمام بقية الخيل:

فَرَدَّ عَلَيْنَا العَيْرَ مِن دُوْنِ إلفِهِ ... على رُغْمِهِ، يَدْمَى نَسَاهُ، وفَائِلُهْ[1]

فرُحْنَا بِهِ، يَنْضُو الجِيَادَ عَشِيَّةً ... مُخَضَّبَةً أَرْسَاغُهُ، وعَوامِلُهْ[2]

بِذِي مَيْعَةٍ، لا مَوْضِعُ الرُّمْحِ ... لِبُطْءٍ، ولا مَا خَلْفَ ذلكَ خَاذِلُهْ[3]

وكان القوم قد تجردوا لهذا الفرس يعالجون نشاطه وشدة مراسه وهو يدفعهم رافعاً رأسه، وإذا أمكنهم منه فألجموه فإنه بقي حديد القلب:

فبِتْنَا عُرَاةً، عنْدَ رَأسِ جَوادِنا ... يُزَاوِلُنا، عَنْ نَفْسِهِ ونُزَاوِلُهْ[4]

ونَضْرِبُهُ حتَّى اطمأنَّ قَذَالُهُ ... ولمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وخَصائِلُهْ[5]

وينتقل المشهد إلى معركة الصيد التي أُشير إلى جزء منها فيما تقدَّم فالقوم اجتمعوا إلى الفرس، والفرس باكر الحمر الوحشية وردها. وهذه الصورة إنما هي صورة حِصْن بن حذيفة، ماجعله ينقاد إلى مدحه بعد المشهد إثر البيت المذكور أعلاه فيقول:

وأَبْيَضَ فَيَّاضٍ، يَداهُ غَمامَةٌ ... عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغِبُّ فَواضِلُهْ[6]

النّبات الشديد الخضرة. والمسائل: حيث يسيل الماء إلى الرياض.

١ - العَيْر: حمار الوحش. والإلف: الأتان. والنَّسَا: عِرْق من الوَرِك إلى الكعب. والفائل: عرق في خُرَّابة الوَرِك.

٢ - ينضو الجياد: يتقدمها. وأرساغه وعواملة: قوائمه.

٣ - المَيْعة: الدفعة من السير. ولا موضع الرمح مُسْلِم: أي مقدمه لا يسلم مؤَخَّرَهُ، يعني لا يخذله فهو يؤيده ويعينه.

٤ - بتنا عراة: أي تجردنا للفرس نُعالج إلجامه. ويزاولنا عن نفسه: يعالج مدافعتنا.

٥ - قذاله: معقد عذاره من رأسه. والخصائل: جمع خَصيلة، وهي كل لحمة في عصبَة.

٦ - أبيض فيَّاض: يريد رجلاً نقياً من العيوب، والفياض: الكثير العطاء. ويداه غمامة: أي تمطر

obeikandi.com

تَـــراهُ، إذا مـــا جِئْتَـــهُ مُـــتَهَلِّلاً كأَنَّـكَ تُعْطيْـهِ الَّـذي أَنْـتَ سَـائِلُهْ

فـالفرس لا يخـذل الـصيادين ويـصيد لهـم مـا يتمنونـه وحِـصْن يمـنح القـوم الأعطيات الفريدة، فكلاهما ينضوان أقرانَهُما.

وبهـذا تتـشابك صـورة الفـرس بالممـدوح[1]، فـإعزاز الأول يعـني تكـريم الثـاني وكأن زهيراً خلق الحياة البديلة في مشهد الخيل والحمر الوحشية، ولا سيما حين أبرز حالة الشجاعة والقدرة والكرم بكل دقائقها. فزهير خلق بصنعته الفنية المتْعة الأدبية وفي الوقت نفسه أرسى قيماً فكرية تقيم التوازن بين المشهد والممدوح.

وإذا كان زهير يمثل قمة الإبداع في مشهد الخيل والحمر الوحشية فإن لمسته الفنية المبدعة على قلة مشاهد الحمر الوحشية مع الخيل تتميز من غيره، وعلى أن قَصَب السبق في الإبداع لا يقف عند شاعر واحد في تلك المشاهد، ومثل هذا يقال في مشهد الخيل والبقر الوحشي.

٢- مشهد الخيل والبقر الوحشي

مشاهد الخيل وحيوان الوحش تؤكد أن الارتباط بالخيل ليس ارتباطاً عادياً مثلما تثبت أن اعتماد القصيدة عليها ليس عَرَضاً. فمشاهد الحمر الوحشية لا تتوقف عند التي تقدمت[2]، وإن بقيت قليلة بالقياس إلى مشاهد الحمر مع الناقة[3]. وهذه تظل قليلة إذا قرنت بمشاهد الخيل والبقر الوحشي، وإن عَرَضت مشاهد الخيل لأكثر من حيوان في وقت واحد لإثبات صفة دون أخرى[4].

تمطر يداه بالإعطاء. والمُعْتَفون: الطالبون ما عنده. وما تُغِبُّ فواضله: أي هي دائمة لا تنقطع، ولا تأتي في الغِبِّ، والفواضل: الأعطيات.

١ - عزز أستاذنا المرحوم أحمد راتب النفاخ ذلك التحليل لصورة الخيل عند زهير غير ما مرة، و هو ما نحس به في حديث الدكتور طه حسين، انظر حديث الأربعاء ١/١٠٥.

٢ - انظر مثلاً: ديوان سلامة بن جندل ١٠٩ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٦٩- ٢٧٠ وشعر خفاف بن ندبة ٤٦٨ وعمرو بن معد يكرب ١٣٠- ١٣١ والأصمعيات ٤٠ ق٩.

٣ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ١٠١ و١٣٣ و١٦٣ و١٨٧ والأعشى ٤٣ و١٥٥ و٢٠١ و٢٤٩ و٢٦٥ و٣٦١.

٤ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٤٦- ٥٥ و٧٥- ٧٦.

obeikandi.com

ومن هنا فمشهد الخيل والبقر الوحشي يتناهى إلى المشاركة المتفردة للعرب بالطبيعة الحية، ويصر على إظهار مكانة الخيل في الحياة والشعر. فلما شغفهم التعلق بها آثروا – أحياناً – على أنفسهم، وحين تملكتهم نشوة رؤيتها والمباهاة بأفعالها تأملوها وأظهروا صفاتها كما لو لم يكن لها شبيه.

وبهذا كله برز المذهب الفني مغايراً لما ورد في مشهد الحمر، كما أن الشعراء غالباً ما جعلوا الصياد يفاجئ البقر بخيله أم بها وبكلابه، وصوروا ذعر النِّعاج المطفلات من بعد اطمئنان. وكانت سابقاً قد ظهرت عليها الهيبة والوقار تتهادى في مشيتها اختيالاً كأنها تأنف من كل شيء، بيد أن الفرس ما ترك لها الحياة تتم، فصُدِمت به، أو به وبالكلاب.

وهذا يقودنا إلى أن الشعراء وَفَّروا للمشهد عناصره الموحية بالأشكال الحقيقية، وخلقوا الإطار النفسي الذي يأتلق في القصيدة إئتلاق الحياة في نفوسهم، وصوروا الفرس كأنه الدهر سُلِّط على رقاب هذه الحيوانات الوادعة، ولكن التعلق بالحياة بقي أكبر منه ومن بطش الدهر بالكائنات[1].

وينطق مشهد الخيل والبقر الوحشي بالقدرة على التعبير والتصوير للطبيعة الحية ولضروب من الحياة الاجتماعية والفكرية سواء اقترن بذكر الكلاب أو جاءت البقر فيه منفردة من دون الخيل والكلاب لإظهار صفات بعض الأشخاص.

وبذلك كله فالمشهد يفسر مبدأ الجاهليين حول صراع البقاء، وكأن حياتهم تلاقي حياة حيوان الوحش الذي لا يقتل حباً بالقتل والاعتداء بل ليبقي على حياته[2]. ولهذا تظهر صورة البقر الوحشي أشبه بصورة المفهوم الاجتماعي لديهم، فالثيران صاحبة إرادة قوية، وقد استمدت حنكتها من تجاربها، واكتسبت سرعتها من مواصلة الجري والتدريب. وهي تخوض غمرات القتال حارسة إناثها بيقظة، وإذا اضطرت إلى حمايتها وضعت أجسامها متاريس لها، لتدفع كيد المعتدي[3]. فهي

---

١ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القييس ٧٥- ٧٧ و١٠٤ و١٦١- ١٦٢ وبشر بن أبي خازم ٧٦ و١٠٥.

٢ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٥٢- ٥٣.

٣ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٣٧ ق٢.

openkandil.com

تذود عنها ببسالة نادرة وتدرك أنها تؤذي نفسها، وقد يؤدي بها ذلك إلى الموت. ولهذا ترى الثور يتلفّت يمنة ويسرة توقداً وجرأة فيهز قرنه في رأسه كأنه سنان معد للطعان[1]. وعلى الرغم من أنه شَهْم أَبيٌّ فهيهات له أن يقف بوجه الفرس الذيَّال القوي الذي يبطش بالبقر وكأنه يحمل حقداً عليها. وهي تدرك ذلك، ولهذا يساورها الخوف حين تبيت الليل، ويؤرقها قدوم النَّهار[2].

وقد يتفاوت مشهد الخيل والبقر الوحشي بين الشعراء في الدلالة والإبداع، فأبو دواد الإيادي كان يصهر نفسه بفرسه ويستأنس بها بعتقها وكرم أوصافها، وهي تشبه ثوراً وحشياً شديد المرة والنشاط[3]. وعلى إبداع أبي دواد وتقدمه تفوق عليه امرؤ القيس في مشهد الخيل والصيد غالباً، فشغفه بالخيل جعله يورد مشاهد الحيوان ولا سيما البقر الوحشي، وينوع بها ليظهر الجوانب المعنوية والصفات الحسية لفرسه. فهو يمر في قصيدته البائية – مثلاً – بمشهد الناقة والحمر الوحشية مراً سريعاً ولكنه يؤدي وظيفة نفسية عظيمة إذ يزيل همومه بمثله. وقد يذكر مشهد الخيل لهذه الوظيفة في قصائد أخرى[4]، أما في تلك القصيدة فينتقل إلى مشهد الخيل والبقر الوحشي لإظهار صورة فروسيته[5]. فهو يتحدث عن فرسه من خلال معركة الصيد، فإذا هو يجر ذيله خيلاء، ويتفوق على أقرانه بصفاته الجسدية التي تبرز صفاته المعنوية. فالفرس يدهم البقر الوحشي ويفرقها دون أن يخيفها، بينما أخذت إناثها تحتمي بالثور وتلوذ به وكأنها العذارى الحسان ذوات المُلاء المذيل اللواتي يطفن بصنم[6]. وتنجلي أحداث المعركة عن الأبقار الصرعى فتبدو عيونها مثل خرز لم يُثَقَّب، وقد نثر حول خباء. أما الثيران فقد تساقطت مصدرة غمغمة أشبه بأصوات السهام. ثم يعطينا صورة للجرذان التي خرجت من

---

١ – انظر مثلاً: ديوان الهذليين ٢/٩٨.

٢ – انظر مثلاً: ديوان الأعشى ١٠٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ٢٢١ و٢٧٧.

٣ – انظر شعر أبي دواد ٢٩٥ و٢٩٩ و٣١٧.

٤ – انظر ديوان امرئ القيس ٨٦– ٨٧ و١٨٥– ١٦٠.

٥ – انظر ديوان امرئ القيس ٤٦– ٤٩.

٦ – يكرر امرؤ القيس ذلك، انظر ديوان ٢٢ و٨٧– ٨٨

obeikandl.com

أنفاقها ظانة بأن جري الخيل ماء دهمها، ومن هنا يعود إلى حديثه عن فرسه ليركز صفاته ولا سيما ما يدل على عتقه[1]، ويعلن بكل ثقة أنه وقع في النفس موقعاً كريماً[2]، لهذا يفديه الأصحاب بالأم والأب[3]:

حَبِيْبٍ إِلى الأَصْحَابِ غيرِ مُلَعَّنٍ يُفَدُّونَهُ بالأُمَّهَاتِ وبالأَبِ

فمشهد الخيل والبقر الوحشي عند امرئ القيس يوضح الأثر النفسي الذي يحدثه التصوير الخارجي كما فعل طفيل الغنوي في مشهد الخيل والحرب، وكما وقع لمشهد الخيل والبقر الوحشي عند علقمة الفحل[4]. وكان علقمة أجود عبارة وأدق تصويراً لأنه جاء مقلداً في قصيدته تلك لسابقه[5]، فاستفاد من سقطاته حين رد عليه، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أدار امرؤ القيس صفاته على الفارس لإبراز ذاته ولم ينس الفرس على حين عُني علقمة بصفات الفرس فقط، ولكنه خلق منها صفات الفارس، وهذا إبداع من نوع آخر. ومهما يكن فلغة امرئ القيس تبقى مختلفة عن لغة الشعراء، فهي لغة تجذر وظيفتها بما تستدعيه شبكة المقاربات بين الألفاظ فتنتج صورة للقدرة والقوة والنشاط التي يتمتع بها الفرس، وله من العِتْق والأصالة ما يجعله يزدان في عيون مشاهديه. وهو صياد ماهر، فمشهد الدم الذي يخضب[6] صدره لكثرة ما يصيد يدل على ذلك، وإذا ما أرسلته في الصيد كان قيداً للهاديات، بل لو أنفذته إلى طراد الطير المختلف الألوان لفَعل، وعلى مثل هذا الفرس يخرج قبل أن تغادر الطير وكناتها.

ويوهمنا الشاعر حين توقف طويلاً عند صفات فرسه، وكأنه ما خرج رغبة في

---

١ - إنه مذهب فني ركن إليه في غير ما قصيدة، انظر ديوانه ٢٣ و٥٤- ٥٥ و٧٦ و٩٣.

٢ - انظر ديوان امرئ القيس ١٧٥- ١٧٦.

٣ - ديوان امرئ القيس ٣٨٩.

٤ - انظر ديوان علقمة الفحل ٧٩- ٩٩.

٥ - أكد الدكتور سلامة الدقس أن امرأ القيس وضع تقاليد ثابتة لرحلة الصيد وصورة مثالية لجواد الصيد، وقد التزم بمنهجه كل من جاء بعده، انظر وصف الخيل ٢٦٥ و ما بعدها.

٦ - انظر ديوان امرئ القيس ٢٣ و٥٥ و١٦٧ وانظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٧٠ و(صادر) ٧٩.

obeikandl.com

الصيد أو إذْعَار الأبقار الحسان اللواتي يشبهن الفتيات الجميلات. ومن هنا يعرض عن ذكر معركة الصيد أحياناً إلى تنويع في المشهد دون أن يتجرد عن التعلق مرة بفرسه ومرة بالبقر الوحشي.

فمشهد الخيل والبقر الوحشي لديه مظهر من فروسيته وشخصيته؛ فالفرس يوقع بالأبقار مثلما يفعل هو بفتياته، وكلاهما قوي جريء صبور. وحين أخذ فرسه من كل حيوان أفضل ما فيه حتى استقبلك بأنف العزة واستدبرك بعِتْق الصفات فإن امرأ القيس لم يكن أقل أصالة وجمالاً منه. وكأننا نلمس في مشهد الخيل والبقر الوحشي صفة الرجولة والأنوثة فالخيل رمز للأولى والبقر رمز للثانية. ولعله في ذلك كله يقيم توازناً حقيقياً في الشعر يماثل ما هي عليه الحياة، ويصبح الشعر لديه وجهاً لشخصيته، وصورة لتفكيره، ومن أمثلة ذلك قوله[1]:

كأنّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ولمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذاتَ خَلْخَالِ

ولَمْ أَسْبأ الزِّقَّ الرَّويَّ ولمْ أَقُلْ لخَيْلِي كَرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ[2]

فمشهد الخيل والبقر الوحشي يخلق إطاراً زمنياً ما نكاد نعرفه إلا عند امرئ القيس، لأن خيله قادرة على الإتيان بما لا يستطيع أن تفعله خيل الشعراء. ولهذا نراه محباً لها ـ إذا لم يكن عاشقاً لها[3] ـ لأنه ينصهر بصفاتها، فتخال الفرس في القنص كأنه القانص، بل يبدو القانص كأنه لا علاقة له بما يجري حوله.

ولعل ذلك كله ينبض بالإرادة القوية التي تمكن من الوصول إلى أن مشهد الخيل والبقر الوحشي إنما يجسد العزة النفسية لديه بينما يظل مشهد الناقة وحيوان الوحش صورة للمخاوف التي تنوشه حتى تكاد نفسه تميز من الغيظ، ولم نعهد هذا عند بقية الشعراء. فالشعراء جعلوا صورة البقر الوحشي في مشهد الناقة صورة من الاختلاط بين صفاتها وصفات المرأة كما فعل لبيد بن ربيعة مثلاً حين

---

١ - انظر ديوان امرئ القيس ٣٥ وبقية القصيدة، وانظر فيه أيضاً ٢٣٣- ٢٣٥.

٢ - لم أسبأ: لم أشتر. والإجفال: الانهزام والانقلاع من الموضع بسرعة.

٣ - انظر وصف الخيل ٣٠٠- ٣٠١.

obeikandl.com

جعل النساء كبقر الوحش حتى اختلطت الأصوات بين هذه وتلك في قوله[1]:

زُجَـلٌ ورُفِّـعَ في ظِـلالِ حُـدُوجِهَا بِـيْضُ الخُـدُودِ حَـديثُهُنَّ رَخِـيْمُ[2]

بَقَـرٌ مَـسَاكِنُهَا مَـسَرِبٌ عَـازِبٌ وارْتَـبَّهُنَّ شَـقَائِقٌ وصَـرِيْمُ[3]

وعلى الرغم من أن امرأ القيس يضفي على الفروسية حيوية وتنويعاً كما يظهره مشهد الخيل والبقر الوحشي بيد أنه على إبداعه لم يكن متفرداً في هذا الاتجاه. فالشعراء[4] أرادوا خلق الحياة في هذا المشهد وأضرابه، وتعلقوا بالصفات الجمالية أكثر من غيرها فجاء الخَلْق الفني ذا تصوير فذ، وكأن الحاضر عندهم أجمل من الماضي، لأنه ينفي عنهم الهموم وما يحل بقومهم من مآس. وعلى اختلاف الشعراء في ذلك فإننا نتخذ من مشهد لعدي بن زيد سنداً إلى توضيح أطراف من تلك المعاني. فهو يفاجئ بجواده المطهم أبقاراً وادعة، ويلوذ فارسه به حتى يحبس أنفاسها، ثم يشرع يفرّق بينها دون أن ترى لنفسها مأمناً وملجأ فيقول[5]:

ومجـودٍ قـدِ اسْـجَهَرَّ تَناويـ ـرَ كَلَـوْنِ العُهُـونِ في الأَعْـلاقِ[6]

في خَريـفٍ سَـقَاهُ نَـوْءٌ مِـنَ الدَّلْـ ـوِ وتَـدَلَّى لمْ تَـوارِ العَرَاقِـي[7]

لم يُعِبْـهُ إلاَّ الأَدَاحِـي فَقَـدْ وَبَّـ ـرَ بَعْـضُ الرِّئَـالِ في الأَفْـلاقِ[8]

---

١ - شرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٢١.

٢ - زجل: فِرَق. وبيض الخدود: أي نساء بيض الخدود، والخدود: الوجوه والرَّخيم: الحَسَن.

٣ - المسارب: المراعي. والعازب: الحشيش الذي لم يوطأ. والشقيقة: أرض بين رملتين تنبت نباتاً. والصريم: الرمل المنفرد. وارتبهن: أي رباهن.

٤ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ١٠٩- ١١٠ و(صادر) ١١٥- ١١٦ وطرفة بن العبد ٧٠.

٥ - ديوان عدي بن زيد ١٥٢- ١٥٣.

٦ - المجود: الروض جاده المطر. واسجهر النبات: طال وانبسط. والتناوير: من نور، وأراد الزرع. والعُهُون: جمع عِهْن، وهو الصُّوف. والأَعْلاق" جمع عِلْق، وهو الثوب.

٧ - النَّوْء: المطر. والدَّلْو: بُرْج من أبراج السماء. والعَرَاقي: جمع عَرْقاة، وهي خشبة معروضة على الدلو. ولم توار: لم تسقط.

٨ - وَبَّر: نَبت زَغَبُه. والرِّئال: جمع رأل: وهو ولد النعامة. والأفلاق: ما تفلق من البيض.

obeikandl.com

وإِرَانُ الـــثِّيرانِ حَـــوْلَ نِعـــاجٍ مُطْفِـــلاتٍ يَحْمِـــيْنَ بـــالأَرْوَاقِ[1]

وتَـــراهُنَّ كـــالأَعِزَّةِ فِي المَحْـــ ـــفِلِ أو حـــينَ نِعْمَـــةٍ وارْتِفَـــاقِ[2]

فالمشهد يضج بعناصر الألوان الزاهية، وبما يحمله من متعة الإيحاء بما يبعثه في جنباته من الحركة والسكون، وتجدد الحياة. ولعل ظهور التأثير الحضري لم يقلل من قيمة ذلك ولا سيما حين صور النعاج متوسدات أماكن الصدارة تحميها الأرواق كالأعزة من القوم.

فهذا المشهد يرتبط بالاتجاه الواقعي الأصيل الذي يستمد ملامحه من البيئة، ويعمق النزعة النفسية التي تصدى لها الشعراء وعالجوها على هذا النمط دون ذاك. فعدي بن زيد اتجه في أوصافه إلى الواقع الاجتماعي الذي خالطه، ومثل هذا فعل النابغة الذبياني، إذ استفاد من حياته مع الملوك في رسم مشاهد معركة الصيد بين الكلاب والبقر الوحشي في معلقته[3].

وكيفما اتفق الشعراء في مشاهد الخيل والبقر الوحشي فإن مشهد المعركة لم يكن مقصوداً لذاته، وفي الوقت نفسه لم يذكر عَرَضاً ودون هدف محدد، وإنما هو تأكيد لموقف ما كان الشاعر قد اتخذه منذ بدأ قصيدته[4]. وهذا المبدأ يلامس أغلب مشاهد الحيوان في القصيدة الجاهلية إن لم تكن كلها.

ومن هنا تظل صورة الكلاب المنهزمة ـ بعد أن ظنت القدرة بنفسها ـ رمزاً للأعداء الفارين، وهي تتفرق وقد علا عواؤها، كارهة اللحاق بالثور أو البقرة لأنها أدركت كيف سقط إحداها مضرجاً بدمه[5].

---

١ - الإران: النشاط. والأرواق: جمع رَوْق، وهو القَرْن.

٢ - الارتفاق: الاتكاء.

٣ - انظر ديوان النابغة الذبياني ١٧- ٢٠.

٤ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٤٢- ٤٣ وبشر بن أبي خازم ٥١- ٥٣ و١٠١- ١٠٤ والأعشى ٣٣١- ٣٣٣ و٣٩٧ وشعر زهير بن أبي سلمى ٦٣ و٢٠٥.

٥ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٢- ٤ وبشر بن أبي خازم ١٢٠- ١٢٢.

obeikandl.com

ويكاد مشهد الصيد ينعدم عند عنترة والخنساء، فلعل ارتباط الخيل بمفهوم حياتهما ورؤيتهما جعلهما يعرضان عن مشهد البقر الوحشي والكلاب في مشهد الخيل. بينما عمدا[1] أحياناً إلى الجمع بين صفة الخيل والناقة وهي صفة من تتحدث القصيدة عنه، كقول الخنساء في رثاء أخيها صخر[2]:

وخَرْقٍ، كأَنْضَاءِ القميصِ دَوِيَّةٍ، مَخُوْفٍ رَداهُ، ما يُقِيمُ بهِ رَكْبُ[3]

قَطَعْتَ بمِجْذامِ الرَّواحِ، كأنَّها، إذا حُطّ عَنْها كُورُهَا جَمَلٌ صَعْبُ[4]

فثارَتْ تُباري أَعْوَجِيًّا مُصَدِّراً، طَويلَ عِذَارِ الخَدِّ، جُؤْجُؤُهُ رَحْبُ[5]

فصخر يقطع البيداء مهلكة على ظهر راحلته التي تبدو كجمل صعب المزاج، وهي تباري الخيل من بَنات أعوج.

وقد تشير الخنساء إشارة طفيفة إلى مشهد البقر الوحشي وتقصر الصفة على المشبه (الخيل) فتطيل به على حساب المشبه به (البقر الوحشي)، فالخيل تقنص الثيران مثلما يقنص صخر الأبطال في ساحات الوغى، وتتكفئ بعد ذلك إلى الحديث عن صخر، لأن الخيل موظفة لإظهار بطولته وقدرته وشجاعته. وبهذا تختلط مشاهد الحيوان، بل تبقى مقتصرة على الصفات التي تشترك مع صخر[6]، لأنه كان يركب خيلاً كأمثال اليعافير كما تقول الخنساء في رثائها له:[7]

---

١ - راجع ما تقدم ١٥٩و١٦٢- ١٦٤ وانظر سمط الآلي ٧٧٣/٢.

٢ - ديوان الخنساء ٩- ١٠ (صادر).

٣ - الخَرْق: الفلاة التي تتخرق فيها الريح. وأَنْضَاء: جمع نِضْو، وهو حديدة اللجام. والقميص: الدابة الصعبة. والدَّوِيَّة: المَفَازة التي لا يهتدي بها أحد،

٤ - مجذام الروح: الناقة السريعة. والكُور: الرحل وأدواته.

٥ - ثارت: أرادت ناقته. والأعوجي: لمنسوب إلى الفحل المشهور أعوج. والمُصَدّر: المتقدم الخيل بصدره، والبارز برأسه، أي السابق. وعِذَار الخدّ: جانبا لجامه.

٦ - انظر ديوان الخنساء ٥٥.

٧ - انظر ديوان الخنساء ٦٥ (صادر).

openkanal.com

يـا لهـفَ نَفْـسِي عَلـى صَـخْرٍ إذا خَيْـلٌ لِخَيْـلٍ كأمْثـالِ اليَعـافِيرِ[1]

ومما تقدم يتبين أن مشهد الخيل وحيوان الوحش في الشعر الجاهلي إنما هو تجسيد حي وفاعل لقصة الصراع بين الحياة والموت أي قصة صراع البقاء. وهي تتكرر بأشكال متعددة، وإن بقي امرؤ القيس أكثر تجسيماً لصورة الكلاب وحياتها، ولا سيما حين يبرز قسوة الصراع مع البقر الوحشي، وهذه تخرج أقصى ما عندها من النشاط والقدرة ولا بد لها من الانتصار[2].

وقد يلاقي امرؤ القيس ما رمى إليه أوس بن حجر[3] وبشر بن أبي خازم[4]، وكأن النهج الفني واحد وإن اختلف المشبه بينهم، لأن طريقة العرض متماثلة والنتيجة متطابقة. فالكلاب صورة من الأعداء لحيوان الوحش، وحين يسقط أحدها صريعاً يرتد الآخرون لتيقنهم بنهايتهم المحتومة بينما زها الثور أو البقرة الوحشية بانتصاره وبقي شريفاً أبياً ولا سيما حين أدرك نشوة ذلك وهو يُدخل مِبْراته في أجساد أعدائه ولعل إصرار الشعراء على النصر جعلهم يلجؤون أبطال مشاهدهم إلى شجر قريب ليأخذوا شيئاً من الراحة ويستعدوا للقاء جديد[5]. ولهذا فإن الثور كان يبرم رأيه بسرعة ويحكمه في كل موقف يواجهه، وتبرز شجاعته وقدرته على التصرف والقتال إذا ما تحلأت الكلاب حوله، فإذا واتته الفرصة للنفاذ منها جعل هو الآخر أرطأة يلوذ بها حتى يأتي الصباح. وكذا كان الجاهلي يقاتل من شروق الصباح حتى غروبها ويهادن في الليل طلباً للراحة.

ويظل لبيد بن ربيعة[6] أكثر توفيقاً من غيره[7]، حين أبرز صورة الصراع الأزلي

---

١ - اليعافير: جمع يَعْفُور، وهو الظبي الذي لونه لون التراب.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٦٠- ١٦٢.

٣ - انظر مثلاً: ديوان أوس بن حجر ٣- ٤.

٤ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٥١- ٥٣.

٥ - انظر مثلاً: شعر زهير بن أبي سلمى ٤٤ و٤٨ و٣٧٩-٣٨٠ وديوان بشر بن أبي خازم ٥١ والأعشى ٢١٣ و٢٩٥ و٣٦١-٣٦٣ والنابغة الذبياني ٢٦-٢٨ وعامر بن الطفيل ٤٠.

٦ - انظر مثلاً: شرح ديوان لبيد بن ربيعة ٣٠٧ و مابعدها.

٧ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ١٨٠ و٣٠٤ والأعشى ٣٢٥.

obeikandl.com

من أجل البقاء، وقد يكمن الموت بسهم من سهام الصياد إذا أخفقت الكلاب بالقضاء على حيوان الوحش، وبهذا يكون مصيره مثالاً "على حتم الموت وتقلب الزمن وبطش الدهر"[1].

ولم تكن النتيجة لديه لصالح البقر الوحشي وإن أنجى غيرها في بضعة مشاهد مخالفاً أكثر الجاهليين، فكأني به يلاقي الهذليين في إصراره على قتل الحيوان لأنه مَثَل للعِبْرة والتعزي، وصورة من العجز أمام قدرة الدهر.

ولعل ما تقدم كله وما نجده من شواهد أخرى للخيل والصيد يحقق لنا رؤية فكرة العمل الذي يشي بالحديث عن ظاهرة الجوع التي يتعرض لها عدد غير قليل من أبناء الجاهلية ما جعلهم يفرحون لطعام القادم إليهم، يستبشرون به فرحاً، ولاسيما حين يتحلقون حول الشواء، كما أبرزه امرؤ القيس...وكذلك هو يشي بمدى المشاركة الجماعية التي ظهرت في المشهد سواء تجسّد ذلك بعدد الصيادين، وقد شاركتهم الكلاب في تعقّب الطريدة، أم تجسَّد بعدد الطرائد من بقر الوحش...

فإذا كان مشهد الخيل الصيد يعبر عن روح الجماعة الجاهلية ممثلة بتدريب الخيل على المناورة والقتال، وإعدادها للحرب كما رأيناه عند زهير وغيره فإنه يعبر في وقت واحد عن قيم الجاهليين في حالات الفخر والاعتزاز بالذات الجماعة، فضلاً عن حالات أخرى في أغراض شتى في نظام التحول المستمر لحياة التبدي في العصر الجاهلي.

ولعل ما يقدمه مشهد الخيل والطير من معان يكمل مفهوم الجاهليين حول ذلك في مشهد الحيوان.

٣- مشهد الخيل والطير

اعتقد الجاهليون بأنه لا أسرع من خيلهم وأنفسهم إلا الطير، ولهذا لجأ كثير منهم إلى أنواع من الطير لإبراز صفة خيلهم، واختاروا منها- غالباً - النسر والصقر والقطا والعقاب والنَّعام. وإذا كانت مشاهد الطير قد أضفت على مشاهد الخيل

---

١ - الشعر الجاهلي (د. النويهي) ٧٥٩/٢.

openkandi.com

فنوناً تعبيرية مختلفة فإن الشعراء أحاطوا صفة السرعة أكثر من غيرها بعوامل نفسية وطبيعية مصدرها الأول حياتهم وحياة الطائر الذي اختاروه. وأينما وقعت هذه المشاهد في مشاهد الخيل والصيد أم في مشاهد الخيل والحرب[1] فإنها استمدت قيمها من طبع الحيوان وتصرفه. فالحنين يجعل النَّعام أشد شوقاً إلى الأُدْحِيّ، فتشتد في الجري . وكذلك كانت العقاب الحريصة على الحياة تمرغ أنف الطريدة بالتراب مهما تملك هذه من قوة وحنكة[2] وكان البازي ينقض وراء قطاة فيغْرز مخالبه في جسدها الصغير ولكنها تفر بذمائها طالبة الحياة وهو يطلب الطعام[3]، والقطا نفسها حين يلهبها العطش تتجه مسرعة إلى ماء طالما رادته[4].

ومن هنا وهناك يأخذ مشهد الخيل صفة من الصفات ويغدو أكثر تنوعاً وأكبر حجماً في صوره الحسية والنفسية. فالشعراء استفادوا من حسن إتيان الصقر للصيد، وهو طبع لا يعيش إلا به، ولكن الإفادة تتركز في صفة السرعة لتصبح طبعاً فيه وفي فرس النابغة[5] والأعشى[6] مثلاً. وحين أفاد كل منهما من مطاردة الصقر للقطاة فإن زهير بن أبي سُلْمى بقي أعظم اقتداراً في رسم ذلك كله[7]، ليظهر موقفه من الحارث بن ورقاء الأسدي. فالمشهد جاء في حادثة وقعت لراعيه يَسَار وإبله يوم أغار الحارث بن ورقاء على بني عبد الله بن غطفان فغَنِمَ واستاق إبل زهير وراعيه. ولهذا جاء مشهد الخيل قصيراً وكأنه جسر انتقال إلى مشهد الصقر والقطاة، وكأننا به يعني بالصقر الحارثَ، وبالقطاة التي تعرضت للهلاك القومَ وراعيَهُ الذين أصابهم الفزع.

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٤٠ و١٨٩ وطفيل الغنوي ٢٧و٣٦و٤٤و٦٠و٧٧ وعنترة ٣٣٥ وقيس بن الخطيم ٤١ وشعر زهير بن أبي سلمى ٢٥١- ٢٥٣.

٢ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٥٣ وديوان بشر بن أبي خازم ٤٧ وسلامة بن جندل ١٧١ والأصمعيات ٤١ ق٩ والمفضليات ٣٧ ق٥.

٣ - انظر مثلاً: ديوان الحادرة الذبياني ٩٣ وما يأتي من البحث ٢٣٥ ـ ٢٣٨.

٤ - انظر مثلاً: ديوان الأفوه الأودي ١٩ وعبيد بن الأبرص ٥٧ و١٢١ وعامر بن الطفيل ٩٣.

٥ - انظر مثلاً: ديوان النابغة الذبياني ١٧٦- ١٧٨.

٦ - انظر مثلاً: ديوان الأعشى ٢٩٧ و٣٠٧ و٣٢٧.

٧ - انظر ما يأتي من البحث ٢٣٤ ـ ٢٣٨ و مابعدها.

وبهذا ينتقل المشهد من المشبه (الخيل) إلى غيره وهو القوم ويبقى المشبه به واحداً وهو القطاة، وللخيل صفة السرعة وللقوم صفة نفسية، فيقول[1]:

وصـــاحِبِي وَرْدَةٌ نَهْـــدٌ مَراكلُهـــا جَـرداءُ، لا فَحَـجٌ فيهـا، ولا صَـكَكُ[2]

كأنّهـا مِـنْ قَطَـا الأَجْبـابِ حَلأَّهَـا وِرْدٌ وأَفـرَدَ عَنْهـا أُختَهَـا الـشَّرَكُ[3]

جُوْنِيَّـةٌ كَحَـصَاةِ القَـسْمِ، مَرتَعُهـا بالسِّيِّ مـا تُنْبِتُ القَفْعَـاءُ والحَسَكُ[4]

أَهـوَى، لهـا أَسـفَعُ الخَـدَّيْنِ مُطَّـرِقٌ رِيشَ القَوادمِ، لم يُنصَبُ لهُ الشَّبَكُ[5]

لا شَـيْءَ أَسْـرَعُ مِنهـا وهْـيَ طَيِّبَـةٌ نفـساً، بمـا سَـوْف يُنجِيْهـا وتَتْـرِكُ[6]

فالقطا من جنس الطير الذي تفاءل به الجاهلي في الصحراء، فصار مثلاً للفأل الحسن عند كل خائف، وهداية لكل ضال فيها. ولكن المشهد عند زهير يتخذ مذهباً مغايراً لا يجاريه فيه أحد، لأن الأثر النفسي مختلف له. ويتضح هذا من خلال المعركة أولاً ومن خلال ضرب القطاة مثلاً لحصاة القَسْم ثانياً. وكان المسافرون يضعونها في قدح ويُصب عليها الماء حتى يغمرها فيقسمونه سوية بينهم، ولا تكون الحصاة إلا مجتمعة وملساء[7].

وهذا يوحي بأن المخيّلة الشعرية عند زهير تنبسط لرؤية ثقافية وفكرية واجتماعية لا متناهية، وهي لا تنفك عن الانفعال النفسي الذي يعتلج في صدره نحو

---

١ - شعر زهير ٨٢- ٨٣.

٢ - وصاحبي وردة: أي فرس وردة اللون. والفحج: تباعد ما بين العرقوبين والفخذين. والصكك: اصطكاك العُرقوبين في الدواب، والرُّكْبتين في الناس.

٣ - الأجباب: جمع جُبّ، وهو كل بئر خرقت ولم تُعرش بالحجارة. والوِرْدُ: قوم يردون الماء. أفرد عنها أختها: أُخذت أختها.

٤ - الجُوْنيُّ: ضرب من القطا أسود، وهو أشد القطا طيراناً. والقَفْعَاء: بَقْلة من أحرار البقل. والحسك: ثمر النفل من أحرار البقول. والسِّيّ: موضع.

٥ - أسفع الخدين: أراد صقراً، والسُّفْعة: سواد يشوبه حُمْرةٌ. ولم ينصب له الشبك: يعني أنه وحشي.

٦ - تترك: لا تخرج أقصى طيرانها، لثقتها بنفسها.

٧ - وتسمى تلك الحصاة (المَقْلة) انظر اللسان والتاج والقاموس المحيط (مقل – مقسم) ومعجم مقاييس اللغة ٣٤١/٥.

obeikandl.com

المجتمع والطبيعة ،ومن ثم نحو الحارث بن ورقاء. وقد استطاع بقوة الذاكرة الحافظة ،وقوة السبب الدافع أن يجمع لنا مشهداً مثيراً للذة والإمتاع المثير في وقت واحد ، وهو ما يطلق عليه لذة الفن الجميل ولذة المعنى... فالشاعر كان قادراً على وضع رؤيته في صميم طبيعة الفن الجميل. ولهذا ركز على معطيات الاغتراف من الواقع، فرأيناه يعود إلى وصف المعركة فما كاد الصقر يدنو من القطاة ليأخذها حتى شرعت تصوت وتخرج أقصى ما عندها من جهد واثقة بما لديها من قدرة بعد أن عاشت في خصب. ولم ينجها من الصقر أو كَفِّ الوليد إلا واد كثير الشجر. ومن ثم ينكفئ لينذر الحارث بن ورقاء بوقوع الشر إن لم يردد عليه عبده وإبله، ولن يعصمه وادي جَوٍّ من لسانه فيقول[1]:

لـئِن حَلَلْـتَ بجَـوٍّ في بَـني أَسَـدٍ ... في دِيْـنِ عَمْـرٍو وحالَـتْ بَيْنَنـا فَـدَكُ[2]

ليَأْتِيَنَّـكَ مِنِّـي مَنْطِـقٌ قَـذَعٌ ... بـاقٍ كما دَنَّسَ القُبْطيَّـةَ الـوَدَكُ[3]

فالقطاة من الطير الضعيف ولكن زهيراً استمد منها المشابهة في أكثر من وجه للخيل والإنسان[4]، وكذا فعل غير ما شاعر[5]، ولكن الأشهر من ذلك أن يُجعل المشبه به في مشهد الخيل من الطير القوية ولا سيما الصقر والبازي والنسر والعقاب.

ومن هنا ننتقل إلى مشهد العقاب والخيل، فالعقاب سيد الطير، وهو طير لاحم يدرب نفسه ويمرنها على الصيد ، ويسمى الكاسر[6]. والعقاب – يغلب فيها التأنيث

---

١ - شعر زهير بن أبي سلمى – القصيدة ذاتها – ٨٩.

٢ - حللت بجو: نزلت بذلك المكان حيث لا أدركك، وجو واد بعينه. ودِيْن عَمْرو: سلطانه. وفَدَك: اسم أرض.

٣ - القَذَع: أقبح الشتم والهجاء. وباق: أي يجري على أفواه الناس مع الدهر. والقُبْطِيَّة: ثياب تصنع بالشام، والمشهور أنها تصنع بمصر، انظر اللسان (قبط). والوَدَك: الدَّسم.

٤ - انظر شعر زهير بن أبي سلمى ٢٥١- ٢٥٣.

٥ - انظر مثلاً: ديوان عبيد بن الأبرص ٣٢ و(صادر) ٤٦ وسويد بن أبي كاهل ٢٨.

٦ - انظر الحيوان ١٨٢/٣ والمخصص ١٤٨/٨ والمصايد والمطارد ٩٣- ٩٤.

وهي دون النسر في الحجم – وتعتمد على نفسها في الصيد وتصيد طبعاً وتنقض على الطريدة التي تكون غزالاً أو أرنباً أو ذئباً أو ثعلباً[1]. وقيل: إن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) "أخذ العقاب على يده وتقدم بها إلى الكَراكِيِّ[2] ".

وهذا يقود إلى أن الخيل استمدت كثيراً من الصفات في مشاهد الطير، ولا سيما العقاب المنقضة على الطرائد، كما تظهر صورة الاصطراع من أجل البقاء. فالخيل كالعقاب لا تترك مجالاً للفريسة كي تفر منها، وكان امرؤ القيس قد أبدع في إقامة الموازنة بينهما حين صور عقاباً كاسراً تتحرك بسرعة وليونة، وتنقض بقوة وحذق لتنال من ذئب رأته منفرداً[3].

واختلطت أحداث المشهد كاختلاط صورة الفرس والعقاب، وكأنه لا فرق بينهما وكلتاهما تتفوق على بنات جنسها. وحين تساوى المشبه والمشبه به ـ على تفصيله في قصيدته اللاميةـ فإنهما تساويا في قصيدة أخرى عرض فيها صفات الخيل والعقاب في بيتين فقال[4]:

عَلى هَيْكلٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤالِهِ أَفانينَ جَرْيٍ غَيْرَ كزٍّ ولا وَانِ[5]

كتَيْسِ الظِّباءِ الأعْفَرِ انْضَرَجَتْ عُقَابٌ تَدَلَّتْ مِنْ شَماريخ ثَهْلانِ[6]

وقد يكون مشهد العقاب أوضح من مشهد الخيل وكأنما قصد إليه الشاعر، ولعل التفصيل في مشهد المشبه به يعدُّ إمعاناً منه في إظهار صفة المشبه (الخيل). ولهذا لجأ الشاعر في مشهد المشبه به إلى تنويع صور المعارك، فجعل العقاب تقفو أكثر من طريدة، فالثعلب ينجحر[7] والذئب يستغيث بالأرض بعد أن عُفِّر وجهه ومُرِّغ

---

١ – انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس – ١٧٣ – والأعشى ٧٧.

٢ – البيزرة /١١١/، والكراكِيُّ: جمع كُرْكيّ: ضرب من الطير أكبر من القطا.

٣ – انظر ديوان امرئ القيس ٢٢٦- ٢٢٩.

٤ – ديوان امرئ القيس ٩١- ٩٢.

٥ – على هيكل: أي هبطت على فرس ضخم. والكَزُّ: الضنين. والواني: الفاتر المبطئ.

٦ – انضرجت له: انقضت العقاب للتيس. وثَهْلان: اسم جبل. وشماريخه: أعاليه.

٧ – انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٣٨ و مابعدها.

obeikandl.com

بالتراب. وهذا أو ذاك يَنْسل من مخالبها المعقوفة لأن القدر كتب له حياة جديدة، فدسّه في جحر من الأرض ريثما يأتي الليل. فالدهر أبى إلا إمضاء ما قدّره على بعض الحيوانات، فالعقاب خاب فألها في الثعلب أو الذئب،وكان وكرها امتلأ بقلوب ما صادته، وآثار ذلك واضحة حين صورها أشبه بالنوى فيقول امرؤ القيس[1]:

كأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطباً ويابِساً لَدى وكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالي[2]

وربما يكمن إبداع امرئ القيس فنياً في حسن تصويره لما يخالج العقاب من نوازع نفسية، فهي تسعى إلى صيدها حريصة عليه، كي توفر الطعام لصغارها وإلا هددهم الموت[3]، وهي تدرك أن أرانب أورال لا تقنعها وحدها. وبهذا تميز مشهد الخيل والعقاب عنده ،و كل منهما لا يخطئ الهدف ويعرف ماذا يريد.

ومهما يكن شأن مشهد الخيل والعقاب عند امرئ القيس فإنه لم يكن أكثر إثارة، وأجمل وصفاً من مشهد الخيل والعقاب عند عبيد بن الأبرص. فعقابه عجوز وكأنها ناشز ثكلت أبناءها في يوم شديد الصقيع جمد ريشها، ولما رأت ثعلباً من بعيد نفضت البرد عنها، وكأنها نفضت همومها المحزنة وهوت عليه تقلبه بمخالبها حتى ثقبت صدره. وعرض ذلك بأسلوب سهل ومثير فقال[4]:

فَـذَاكَ عَـصْرٌ وقَـدْ أَرَانـي تَحْمِلُـني نَهْـدَةٌ سُـرْحُوبُ[5]

مُـضَبَّرٌ خَلْقُهَـا تَـضْبِيراً يَنْـشَقُّ عَـنْ وَجْهِهـا الـسَّبِيْبُ[6]

كأَنَّهـا لِقْـوَةٌ طَلُـوبُ تَحِـنُّ فِي وَكْرِهَـا القُلُـوبُ[7]

---

١ - ديوان امرئ القيس ٣٨.

٢ - العُنَّاب: ثمر الأراك. والحَشَف: الرديء من التمر.

٣ - انظر مثلاً:ديوان امرئ القيس ١٩١- ١٩٢.

٤ - ديوان عبيد بن الأبرص ١٧- ٢٠ و(صادر) ٢٨- ٣٠ والرواية مختلفة بينهما.

٥ - السرحوب: الطويلة الماضية، وهي صفة بالأنثى من الخيل.

٦ - المُضَبّر: المُوَثَّقة الخَلْق. والسبيب: أراد شعر الناصية الكثيف والطويل.

٧ - اللَّقْوَة: العقاب. والقلوب: أراد قلوب الطير.

obeikandl.com

باتَـــتْ علـــى إرَمٍ عَـــذُوْبَاً كأَنَّهـــا شَـــيْخَةٌ رَقُـــوبُ[1]

فأصـــبَحَتْ في غـــداةِ قـــرَّةٍ يَـسْقُطُ عَـنْ رِيْـشها الـضَّرِيْبُ[2]

فَنَفَـــضَتْ رِيْـــشَها وانْتَفَـــضَتْ وَهِـــيَ مِـــنْ نَهْـــضَةٍ قَرِيْـــبُ

فأبْـــصَرَتْ ثَعْلَبْـــاً مِـــنْ سَـــاعَةٍ ودُونَـــهُ سَبْـــسَبٌ جَـــدِيْبُ[3]

فـــدَبَّ مـــن رَأْيِهَـــا دَبِيْبـــاً والعَـــيْنُ حِمْلاَقهـــا مَقْلُـــوبُ[4]

فرَنَّحَتْـــــهُ فرَفَّعتْـــــهُ فكَـــدَّحَتْ وَجْهَـــهُ الجَبُـــوبُ[5]

يَـــضْغُو ومِخْلَبُهـــا في دَفِّـــهِ لا بُـــدَّ حَيْزُومُـــهُ مَنْقُـــوبُ[6]

ومن ينظر إلى المشهد مرة بعد أخرى يدرك أن عبيد بن الأبرص فطن للصراع القائم في الوجود، وهذه الصفة شدد عليها امرؤ القيس أيضاً ولكن النتيجة تختلف بينهما. فامرؤ القيس أنجى الذئب والثعلب من مخالب العقاب بينما ضرَّج عبيد بن الأبرص الثعلب بدمه، وجعله يُصَوِّت غير مرة لشدة ما لاقاه فأصابه بعنف حركات العقاب الجائعة، فأضفى صورة الهلع والكرب على المخلوق الضعيف الذي عجزت حيلته أمام من هو أقوى منه.

ومن هنا صارت العقاب أشبه بالزمن الذي يسلم المخلوقات إلى حتفها، وكأن الزمن توقف عند الصراع الذي يخلب الألباب. وبدا كأنه أصل المشهد بينما كان في الأصل موضوعاً لبيان صفة الخيل في وحدة فنية ومعنوية أكبر. فعبيد استطاع أن يستشعر الجمال الفني والفكري في صميم استقصاء التأمل لصورتين

---

١ - الإرم: الجبل الصغير وهو العلم. والرقوب: التي لا يعيش لها ولد، والعذوب: المنتصبة.

٢ - القِرَّة: البرد. والضريب: الجليد، وهو ما سقط بالليل من الندى وجمد.

٣ - السبسب: المفازة، والأرض البعيدة المستوية. والجديب: الذي لا نبت فيه ولا شجر.

٤ - يدب: يعني الثعلب يدب ليهرب. وحملاقها مقلوب: أي انقلب باطن جفن عينها.

٥ - كدحت: جرحت. والجبوب: وجه الأرض الصلبة.

٦ - يضغو: يصيح، والضَّغَاء: صياح الثعلب. والدف: الجنب. والحيزوم: الصدر.

openkanal.com

متداخلتين تحوزان ملامح الفتنة والإثارة بطريق التخييل الذي يصوغ الأدب المميز في استدعاء لجودة القريحة، وائتلاف اللفظ مع المعنى.

وهذا كله يعني أننا أمام دلالات الحياة الفكرية والطبيعية، وقد تلونت كتلون نوازع الشعراء وما يكتنفها من لواعج الحب مستفيدين من الحيوان الذي شاركهم ضنك العيش[1]، بل إن مشهد الخيل والعقاب انتقل إلى صفة الإنسان ذاته، فالخيل صورة للفارس. ومن ثم لا شبيه له إلا العقاب في مشاهد الحرب والصيد، كقول سَلَمة بن الخُرْشُب[2]:

فلو أَنَّها تَجْري على الأَرضِ أُدْرِكَتْ ... ولكِنَّها تَهْفُو بتِمْثَالِ طائِرِ[3]

خُدَارِيَّةٍ فَتْخَاءَ أَلْثَقَ رِيشَها ... سحابةُ يَوْمٍ ذي أَهاضِيبَ ماطِرِ[4]

فالشعراء عرضوا في مشهد الخيل والعقاب للطبيعة البشرية بكل معالمها، ما جعلهم ينتقلون - أحياناً - إلى المطابقة بين الصورة البشرية وصورة الطير دون وجود الخيل وساطةً إلى ذلك كقول الحارث بن وَعْلَة[5]، مشيراً إلى فراره يوم الكُلاَب الثاني[6]:

نَجَوْتُ نَجَاءً لم يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ ... كأَنِّي عُقابٌ عِنْدَ تَيْمَنَ كاسِرُ[7]

خُدَارِيَّةٌ سَفْعَاءُ لبَّدَ رِيشَهَا ... مِن الطَّلِّ يومَ ذُو أَهاضِيْبَ مَاطِرُ

---

١ - انظر مثلاً: ديوان بشر بن أبي خازم ٧٥ والأعشى ٢١ والشماخ ٩٩- ١٠٠. وشرح أشعار الهذليين ٩٢/١ و١٠٨ و١١٢ و٢٥٠ و٣٤٢.

٢ - المفضليات ٣٧ ق٥ وانظر فيه أيضاً ٤٠ ق٦، والقصيدة في شرح المفضليات ٨١/١.

٣ - تهفو: تسرع، شبه فرس عامر بن الطفيل المنهزم بالطائر، ليكون هذا أعذر لخيله إذا لم تلحقها.

٤ - خُدَارية: بدل من طائر، والخُدَارِيَّة: العقاب ذات اللون المائل إلى السواد والغبرة. والفتخاء: اللَّيِّنة الجناح. وأَهَاضيب ماطر: دَفعات من المطر.

٥ - الحارث بن وعلة الجَرْمِيّ، ونُسبت القصيدة إلى وَعْلة أبيه، وكانا "من فرسان قضاعة وأنجادها وأعلامها وشعرائها. وشهد وعلة يوم الكلاب الثاني "ووثب عن فرسه" فعدا منها وصاح بها فجرت - وهو يجاريها - فإذا أعيا وثب وركبها حتى نجا، المفضليات ١٦٤ ق ٣٢ -الهامش-

٦ - المفضليات ١٦٥ ق٣٢.

٧ - تيمن: موضع باليمن. والكاسِرُ: الذي يضم جناحيه يريد الانحطاط إلى الصيد يكون للمذكر والمؤنث، عن شرح المفضليات ٦١٥/٥.

obeikandl.com

وهذا المشهد على قدر ما يقترب من المشهد السابق في ضرب من التناص الذي يتحدث عن الإنسان يبتعد عن صورة الخيل ولكنه يؤكد أن مشهد الخيل والعقاب لم يكن محصوراً بمعركة الصيد فهو صورة لجملة من المعطيات الواقعية والفكرية. فمشهد العقاب في قصيدة عبيد بن الأبرص يحكي بشكل من الأشكال ما كان يحدث لأبناء قومه، ولهذا برزت آثار الأحزان والهموم مطاردة إياه.

وحين يعرض المرء غير ما مشهد يجد أن كل مشهد يمتاز بخصائص تتفرد به عن غيره تبعاً لتنوع المشاعر وطبيعة الأفكار واختلافها من شاعر إلى آخر. فمشهد الخيل والعقاب عند دريد بن الصمة يتخذ لنفسه شكلاً جديداً غير ما عهدناه من قبل. فالخيل فيه مسيطرة على ساحة المعركة وكأنها هي التي تقنص الأبطال لا فارسها، ولا شبيه لها إلا العقاب التي باتت ليلتها تعلل نفسها بصيد تقدمه إلى فراخها. وكذا كان حال دريد إذ بات يُمَنّي نفسه بكسب المعركة إذا ما طلع الصباح. وتختلط صورة المعركة التي حدثت في اليوم التالي بين العقاب والثعلب الذي خر قتيلاً مُدمّىً بالأحداث التي وقعت بين المتحاربين من القوم، فيقول[1]:

تَعَلَّلْتُ بالشَّمْطاءِ إذْ بانَ صاحِبي ... وكُلُّ امرِئٍ قد بان صَاحِبُهْ[2]

كأَنِّي وبَزِّي فَوْقَ فَتْخَاءَ لِقْوَةٍ ... لهَا نَاهِضٌ في وَكْرِهَا لا تُجانِبُهْ[3]

فباتَتْ عَليه يَنْفَضُ الطَّلَّ رِيْشُهَا ... تُراقِبُ لَيْلاً ما تَغُورُ كَواكِبُهْ

فلمَّا تجلَّى اللَّيْلَ عَنْهَا وأَسْفَرَتْ ... تُنَفِّضُ حَسْرَى عَنْ أَحَصَّ مَنَاكِبُهْ[4]

رَأَتْ ثَعْلَباً مِنْ حَرَّة فَهَوَتْ لَهُ ... إلى حَرَّةٍ والمَوْتُ عَجْلانَ كارِبُهْ

---

١ - ديوان دريد بن الصمة ٣٨.

٢ - الشمطاء: فرس دريد بن الصمة، انظر أسماء خيل العرب وأنسابها (الغندجاني) ١٣٢ وفائت الحلبة ٩٥ وفي الديوان (الشَّطَّاء) وقد خلَّط المحقق في التخريج والتحقيق فعجز وأوهم.

٣ - البَزُّ: السِّلاح، ويدخل فيه الدرع والسيف والقَلَنْسُوة. والناهض: فرخ العقاب.

٤ - أسْفَرت: أصبحت. والأَحَصُّ: الأجْرد، أو القليل الريش.

openkamal.com

فخَـرَّ قَتِـيلاً واسْـتَحَرَّ بِـسَحْرِهِ وبالقَلْـبِ يَـدْمَى أَنْفُـهُ وتَرائِبُـهْ[1]

فمشهد العقاب مُسَخَّر لجملة من القضايا الفنية و الأفكار التي يود الشاعر نقلها، إذ أصبح جزءاً من عناصر القصيدة في وحدتها الفنية والنفسية، ما يشي بأن استشراف آفاق المشهد وأبعاده يؤدي إلى إدراك طبيعته الجمالية بنية وتصويراً، وكل منهما يزيد في نفس المتلقي الشحنة العاطفية والعقلية. ومن هنا ليس الغرض من مشهد العقاب مجرد التشبيه فحسب وإنما كان له من حسن التعبير عن الخيل القوية التي تهيأت لكسب الحرب ما كان له من قدرة على إبراز ماهية رؤية الجاهليين حول تنازع البقاء. فالدهر يتدخل أحياناً ليتيح فرصة الحياة للطرائد بينما ينهي حياتها إلى الأبد في أحايين أُخَر لتكون مادة للعبرة والتعزي من المصير الواحد الذي ستؤول إليه المخلوقات جميعها.

ومهما يكن من أمر مشهد الخيل والطير على اختلاف ضروبه فإنه يوحي بأن الشعراء على علم بطباع الحيوان ودراية بشؤون حياته. ولعل هذا يظهر وحدة الاتساق الفكرية بينهم ولو اختلفت قبائلهم، لأن البادية ما حملت فارقاً كبيراً يَفْصل بين أنواع طيورها أو حيواناتها، وكأنها تمثل عنصر التجميع لا التفريق.

ويتضح ذلك كله من خلال مشاهد الطير سواء تلك التي آثر الشعراء الحديث عنها في أكثر من موقف فكري أو نفسي كالعقاب والنّعام أم تلك التي قلَّ ذكرها في القصيدة الجاهلية غير أنها حملت في طبيعتها عدداً من الوظائف الأخرى كالحِدَأ.

وإذا كان الحديث في مشهد الخيل والطير يتناول بعض أنواعه فإنه يجعل منها مادة قوية لإبراز صفات الخيل في إطار الوجود الحركي الملموس، إذ لا تتحقق القراءة الفاعلة إلا بدوام هذا الوجود، وهو الذي يؤصل روح الحياة ويكشف عن أسراره. وإذا كانت أدبية المشهد تستند إلى عملية الإبداع الفني فإنها في آن معاً تعتمد على مدى قدرة المتلقي على الاستجابة له. ولهذا قَلَّ ذكر النَّعام مع الخيل واقتصر الحديث على

---

[1] - السَّحْر: الرِّئَة. والتَّرَائب: جمع تَرِيبة، وهي عظام الصدر.

obeikandl.com

صفة السرعة[1]. فالشعراء أرادوا خلق صفة الندرة والتفرد لخيلهم فجمعوا هذه الصفة إلى تلك، واستعاروها من الطير الضعيفة والقوية على السواء[2]. ونلمس في مشهد النَّعام بعض الصفات المغايرة لما يكمن في غيره[3]، فأبو دواد الإيادي يفاخر بسرعة فرسه وحسن إدراكه لطريدته فيختار المشبه به من النعام فيقول[4]:

وأَخَذْنَا بِهِ الصِّرَارَ وقُلْنَا ... لِحَقِيرٍ بَنَانُهُ إِضْمَارُ[5]

فأَتَانَا يَسْعى تَفَرُّشَ أُمِّ البَيْـ ... ـضِ شَدًّا وقَدْ تَعالى النَّهارُ[6]

غَيرَ جَعْفٍ أَوَابِدٍ ونَعَامٍ ... وبُغَامٍ خِلالَهَا أَثْوارُ[7]

يَتَكَشَّفْنَ عَنْ صَرائعَ سِتٍّ ... قُسِّمَتْ بَيْنَهُنَّ كأسٌ عُقَارُ[8]

بَيْنَ رَبْداءَ كالمِظَلَّةِ أَنْقٍ ... وظَلِيمٍ مَعَ الظَّلِيمِ حِمارُ[9]

ومَهَا بَيْنَ حَرْسٍ ورِئَالٍ ... وشَبُوبٌ كأَنَّهُ أَوْتَارُ[10]

فهذا المشهد يمثل حديقة لأنواع من الطيور وبعض حيوان الوحش، وقد استمد من صفاتها ما سخَّره لإظهار صفة خيله وقدرتها، وكأنه أراد لها أن تغدو مثلاً للجمال يقاس عليه. وحذا حذوه امرؤ القيس، وكلاهما لم يبتعد عن الواقع الطبيعي، والاجتماعي لاختيار أجزاء الصفات وإسقاطها على فرسه. ومن ثم فإن

---

١ - انظر مثلاً: شعر أبي دواد ٣٤ وزهير بن أبي سلمى ٢٧٨ وديوان الأعشى ٣٨٥ وشرح ديوان لبيد بن ربيعة ١٤٧- ١٤٩ والأصمعيات ٧١ ق١٧ وسمط الآلي ١٦٩/١ و مابعدها.

٢ - انظر مثلاً: ديوان امرئ القيس ٢١ و٧٥ والنابغة الذبياني ٥١-٥٢ وانظر ما يأتي ٢٢٥- ٢٢٦.

٣ - انظر مثلاً: الأصمعيات ٤١- ٤٢ ق ٩ وانظر ما يأتي ٢٢٩- ٢٣٠.

٤ - شعر أبي دواد ٣١٩- ٣٢٠ ق ٣٤ وانظر وصف الخيل ٣٢٢- ٣٢٤.

٥ - بنانه إضمار: لعل الرواية (ثيابه أطمار)، انظر وصف الخيل (الحاشية) ٣٢١.

٦ - تفرّش الطائر: رفرف بجناحيه وبسطهما. وأراد بأم البيض: النعامة.

٧ - الجَعْف: شدة الصَّرْع. والبغَام: صوت الظباء، وأراد الظباء ذاتها.

٨ - يتكشفن: يظهرن.

٩ - الأنَق: الحسَن المنظر، وسكنت النون ضرورة.

١٠ - الحَرْس: أي المحروسة. والرِّئَال: فراخ النَّعام. والشَّبُوب: الثور المُسِنّ.

openkanaan.com

كل مشهد غني بالانفعالات وتوهج العاطفة، وهو تَوَهُّجٌ دفع بالشاعر إلى الاندماج في موضوعه وفق علاقة استثنائية تبرز الأحداث التي خلعت ذاتها على المشهد فمنحه طعمه الخاص الذي يميزه من بقية مشاهد الخيل والطير.

ومن هنا تنوعت صور الأفراس كتنوع الصفات ودقة اختيارها وإن جعلت الطبيعة الحية مصدراً لها. وبهذا برز تجسيد الواقع مذهباً فنياً للقصيدة الجاهلية وقد تلون بالحس الذاتي للشعراء سواء توقف المشهد عند وصف لأحد الأفراس أم وصف لجماعة الخيل. وربما كانت عصائب الطير من أفضل صورهم لها، مثلما كانت جماعة النَّحل ملاذاً للشعراء في تكوين هذه الصورة في مشهد الخيل كقول عمرو بن كلثوم[1]:

كـأنَّ الخَيْـلَ أَيْمَـنَ مِـنْ أُبَـاضٍ بجَنْـبِ عُـوَيْرِضٍ أَسْـرابُ دَبْـرِ[2]

فالمشهد يمتد إلى الأحداث الحربية التي كانت رحاها تدور بين القبائل ولم يجد أفضل من صورة جماعات الطير للتعبير عنها، وهي صورة نمطية تكررت في الشعر الجاهلي بأساليب شتى، كما سيأتي ذكره. وهذا يعني أن مبدأ الاختيار والمعالجة يصبح جزءاً لا يتجزأ من عناصر العملية الشعرية الإبداعية لمشهد الخيل والطير بوصف الحركة صيغة فنية دائمة الظهور فيه.

ويعد عنصر الحركة جزءاً أصيلاً في الصورة البصرية / السمعية التي تحدث أثرها الإيجابي في نفس المتلقي.

هكذا خلقت مشاهد الخيل والطير صفة المتعة الفنية بمقدار ما حملت عمق الدلالة على جملة من الظواهر الفكرية. فلما أبدع زهير في لاميته فوحَّد بين صفة الخيل وحصن بن حذيفة خَدَعنا في حديثه عن الخيل في الكافية التي تناول فيها مشهد الصقر والقطاة، حين أوهم بأنه ما أراد الحديث عنها، وإنما قصد إلى المشهد المذكور (المشبه به) ليبرز مشهد الخيل (المشبه)، وإن جعله جسراً إليه. وبهذا فإن أجاد في التعبير عن معركة الصقر والقطاة وما أضمره من معانٍ.

---

١ - ديوان عمرو بن كلثوم (كرنكو) ٩٦.

٢ - أباض: اسم قرية بعِرْض اليمامة. وعُوَيْرض: اسم موضع. والدَّبْر: جماعة النحل.

obeikandl.com

وأياً كانت المشاهد فقد ظهرت الخيل في القصيدة مبدأ وغاية للشاعر، وليس هذا غريباً عليها، فهي حصن العربي وبيته وإحدى زينته. بل إنها بهذا المفهوم تؤدي إلى الوقوف على منبع النزوع النفسي والفني للشعراء، وكأنما صار الواقع الفني أكثر غنى وثراء من الواقع الحي. ولعل ذلك من جملة سمات الفن العظيم، لأن المشاهد الحية عامة والخيل خاصة غدت صوراً معبرة عن قيم العصر الجاهلي الفكرية والاجتماعية وهي تتسربل بأسلوب الحكمة المركزة جاعلة الحواس وسائلها إلى المعرفة. فهذه المشاهد لم تعد مجرد إعادة صياغة للحياة، وإنما غدت صورة موازية لها واقعيتها وتاريخها في إطار الحقيقة الفنية الأدبية التي تولد الإحساس بالتفاعل العاطفي والفكري....

ومن هنا فالحواس عند الجاهلي منافذه إلى الحياة والناس والطبيعة، وأداته لالتقاط صوره، وما كانت لتقتصر على مشاهد دون أخرى، لأن التداخل الواقعي في الحياة ينقض ذلك. واعتماد الشاعر على حواسه ما كانت لتحجبه عن إطارها المجازي، بل إن هذه الصور تحمل من التعبيرات المعنوية ما يعجز القلم عن الإحاطة به.

وهذا كله يقود إلى الحديث عن مشاهد حيوانات أخرى من الطير والشاء وذوات الأنياب والأظفار والزواحف في إطار ما نقله الشعراء بعيداً عن ذكر الخيل والإبل غالباً.

openkanal.com